اقرأ

أحمد الشنتناوي

فنون السحر

دار المعارف بمصر

فنونُ السِّحْر

أحمد الشنتناوى

فنون السحر

اقرأ ١٧٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٧٤ – يونية سنة ١٩٥٧

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

الفصل الأول

السحر فى الأمم القديمة

السحر قديم غاية القدم ولا يمكن أن يصل الباحث إلى أصوله وبداياته لأنها أقدم من كل أثر خلفه الإنسان . ولقد كان السحر موجوداً فى كل زمان وفى كل مكان ولا يزال له إلى اليوم أشياع وأنصار منتشرون فى كل بقاع العالم على الرغم من غلبة العلوم المادية على كل ما هو روحانى ، بحيث أصبح الإنسان لا يؤمن إلا بكل ما هو محسوس ملموس .

على أن السحر قد اختلط منذ أقدم العصور بأعمال الشعوذة وحيل المشعوذين وتخيلات أصحاب العقول السقيمة وجرائم الأفاقين والمحتالين ، ودخل إلى ميدان هذا العلم أو الفن إذا أردت الدقة أناس بعيدون كل البعد عن هذا الفن واستغلوا مبادئه وظواهره لتحقيق أغراض مادية لهم ومن ثم بدأ الشك يتسرب إلى عقول الناس فى حقيقة هذا الفن فوصفه البعض بأنه فن إحداث معلولات دون أن تكون لها علل ظاهرة ، وذهب آخرون إلى أن السحر مجرد باطل من الأباطيل .

على أنه لامريه فى وجود السحر فقد ورد ذكره فى التوراة والإنجيل والقرآن وجاء على ألسنة الرسل والأنبياء بل وُصف بعض الأنبياء بأنهم كانوا من أهل هذا الفن ومن المبرزين فيه كموسى ، وسليمان ، بل إن اليهود قد وصفوا عيسى نفسه بأنه كان ساحراً وأنه درس هذا الفن فى مصر .

ولا تخلو أمة من وجود السحر والسحرة بها مهما اختلف حظها من الحضارة والتمدين ، كما أن السحرة موجودون فى كل القبائل الهمجية المنتشرة فى بقاع عدة من آسية وإفريقية وأمريكا ، وهم فى هذه القبائل والجماعات البدائية الطبقة الوحيدة التى تشتغل بالحرف والصناعات .

ويذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن جميع فنون السحر تقوم على أساس من المعتقدات الدينية ، على أن البعض الآخر يميل إلى القول بأن السحر أقدم من كل المعتقدات فى الآلهة والأرباب ، بل يذهبون إلى أكثر من ذلك فيقولون إن بعض الظواهر الدينية البدائية تفصح عن أنها قد نشأت عن السحر . وليست الطقوس والشعائر الدينية ونظام الكهنوت هى الظواهر الاجتماعية الوحيدة التى يدل البحث على أنها أحدث عهداً من السحر وأنها ترجع فى أصولها إلى السحر ، بل هناك كثير من مظاهر الحياة اليومية الأخرى عند الشعوب البدائية تتصل

اتصالا وثيقاً بالسحر ولا يصح القيام بها إلا بمصاحبة بعض الشعائر السحرية من رقى وتعازيم . الأمر الذى دعا البعض إلى القول بأن الرقى السحرية هى أقدم حقيقة فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

ومن فريد ما يروى فى هذا الباب أن الرقى والتعازيم التى يتلوها الساحر بصوته ذى الجرس الذى يجمع بين الرهبة والابتهال كانت الأصل الذى نشأ عنه فيما بعد فن الموسيقى .

وليس من شك أيضاً أن الشعر والفنون التشكيلية كالنحت والتصوير وكذلك الطب والرياضيات والفلك والكيمياء كلها من العلوم التى لها أصول فى فن السحر .

السحر فى الصين :

إن أمة الصين من أقدم الأمم ذات الحضارات العريقة وقد نما فيها السحر وترعرع منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . ويرى البعض أن كتاب الحكيم الصينى الشهير كونفشيوس المعروف باسم « كتاب التغيرات » وهو من أقدم المؤلفات الصينية إن لم يكن أقدمها هو فى صيغته الأولية عبارة عن أسلوب من الكهانة وعلم الغيب . ومن الحقائق المعروفة أن كثيراً من الأعمال والتجارب السحرية التى كانت تزخر

بها كتب السحر الأسود فى أوربا إبان العصور الوسطى قد نقلت عن كتب السحر الصينية أو أنها كانت على الأقل وثيقة الشبه بالأعمال والأعاجيب السحرية التى كانت تمارس فى بلاد الصين القديمة .

وقد اشتهرت الصين القديمة بصفة خاصة بالمرايا السحرية إذ كانت هذه المرايا أشهر الوسائل السحرية التى يستخدمها السحرة فى سحرهم لأنها كانت فى اعتقادهم أقوى الوسائل لمحاربة الجن والشياطين . والسحر فى جوهره عبارة عن الفن الذى يقصد به مهادنة الجن والشياطين وطلب عونهم على أداء الأعمال العجيبة الخارقة للطبيعة أو محاربة هؤلاء الجن وإفساد ما قاموا به من أعمال خبيثة ترمى إلى إفساد النظام الطبيعى الذى تسير عليه الحياة فى هذه الدنيا .

وكان الاعتقاد أن الساحر يستطيع بسحره أن يعكس على صفحة هذه المرآة السحرية صورة الشيطان الذى تسبب فى إيقاع الضرر أو المرض بالشخص الذى جاء الساحر يطلب عونه على تخليصه مما حل به من أفعال هذه الأرواح الخبيثة . فإذا ما وقعت الأنظار على صورة هذا الشيطان المنعكسة على صفحة المرآة السحرية فإن عمله يبطل ويبرأ الشخص من علته أو تنزاح عنه بليته .

ولم تذكر لنا الكتب الصينية القديمة شيئاً عن كيفية صناعة هذه المرايا السحرية على أن بعض الكتاب الصينيين القدماء قد أشار إشارة عابرة إلى هذه المرايا السحرية فقال إنها كل مرآة كبيرة الحجم بلغ منها القدم مبلغاً كبيراً . وإن مثل هذه المرايا يجب أن تحجب عن الأنظار فلا تستعمل لأى غرض من الأغراض التى تستعمل من أجلها المرايا إنما ينظر إليها فقط بقصد طرد هذه الأرواح الخبيثة التى تحل أحياناً فى النفوس البشرية فتسبب لها الكثير من البلايا والمصائب .

السحر فى مصر القديمة :

لقد كان للسحر أثره العميق فى حياة قدماء المصريين حتى إنه ليصعب علينا نحن أبناء القرن العشرين أن ندرك كيف كان المصريون القدماء يخضعون هذا الخضوع التام للسحر الأمر الذى طبع حياتهم اليومية بطابع خاص بل لقد غدا السحر إبان الأسرة الرابعة واحداً من الفنون المعترف بها من الجهات الرسمية فى الدولة المصرية ، ولذلك رأينا أن نفرد فصلا خاصاً من هذا الكتاب للسحر عند قدماء المصريين .

وتدل الكتابات والنقوش المصرية القديمة على أن المصريين القدماء كان لهم أيضاً باع طويل فى فنون الكهانة والتنجيم وقد

ظهر اهتمامهم بهذه الفنون منذ عهد الطفولة القديمة . وحفظت لنا أوراق البردى التى يرجع تاريخها إلى عام ١٤٥٠ قبل الميلاد كثيراً من أفعال السحرة والرقى والتعاويذ التى كان يستخدمها السحرة لجعل عملائهم يرون فى منامهم ما سوف يحدث لهم من أحداث فى مستقبل حياتهم ، وهذا يدلنا على الصلة الوثيقة التى كانت بين الكهانة والسحر فى مصر القديمة .

وكان قدماء المصريين يعتقدون أكثر من ذلك فى طوالع السعد والنحس فبعض الأيام فى أنظارهم سعيد الطالع والبعض الآخر مشئوم الطالع . وقد عثر فى بعض المقابر على جداول خاصة بطوالع النجوم لها دلالات تنجيمية معينة ، كما كان للمصريين آلهة لكل شهر ولكل يوم من الشهر بل ولكل ساعة من ساعات اليوم . وكان لبعض الأعداد دلالات تنجيمية خاصة كالعدد ٧ والعدد ١٢ . ويرى البعض أن الزيج نفسه أو دائرة البروج هى من اختراع قدماء المصريين . وقد أكد بعض كتاب اليونان والرومان والقدماء أن علم التنجيم قد اخترعه رجال الدين فى مصر على أن الأغلب أن البابليين قد سبقوا المصريين فى هذا المضمار .

سحر بابل :

تدل الكتابات والنقوش التى خلفها البابليون والأشوريون

وكذلك اللوحات المكتوبة بالخط المسمارى، على أن فنون السحر كان لها النصيب الأكبر من هذه الكتابات والنقوش . ونستدل من هذه الآثار أن الخوف من الجن والشياطين كان الظاهرة الأساسية فى ديانة البابليين والأشوريين وأن الحياة اليومية عند هذه الأقوام كانت متأثرة على الدوام بالسحر . وكانت مدينة إردو القديمة إحدى المراكز الرئيسية للثقافة السومرية موطناً كبيراً للحكمة القديمة أي لفنون السحر . وكانت المؤلفات السومرية القديمة تعج بالموضوعات السحرية كالترانيم والرقى والتعاويذ .

وقد حفظ لنا أشور بانيبال ملك أشور من عام ٦٦٨ إلى عام ٦٢٦ قبل الميلاد فى مكتبته كثيراً من النصوص الدينية والسحرية وقد جمع هذه النصوص من المعابد المختلفة التى كانت منتشرة فى المدن القديمة وكان أغلبها مكتوباً باللغة السومرية .

والخلاف لا يزال قائماً بين العلماء فى أقدمية ظهور الفلك والتنجيم بين سكان وادى دجلة والفرات . إذ يرى البعض أن ديانة قدماء البابليين كانت قائمة على التنجيم وأن جميع آرائهم ومعتقداتهم كانت متأثرة بهذا العلم وأنهم قاموا منذ أقدم الأزمنة بتدوين بعض المشاهدات والظواهر الفلكية واكتسبوا بعض المعارف الفلكية القائمة على المشاهدة ولكنها ضاعت

بعد أن اضمحلت ثقافتهم وتغلبت عليها بعض الثقافات الأخرى . ويعارض آخرون هذا الرأى ويقولون إن المعارف الفلكية لم تظهر بين سكان دجلة والفرات إلا بعد ظهور الكلدانيين على مسرح التاريخ ، بل إنهم ينكرون معرفة هذه الأقوام بالكواكب السيارة السبعة وعلامات الزيج .

ومما لا جدال فيه أن الرقم سبعة قد تواتر ظهوره فى الدين والأساطير والسحر وذلك منذ الألف الثالثة قبل الميلاد . مثال ذلك الملحمة البابلية الخاصة بالخلق ففيها ذكر للرياح السبع وأرواح العواصف السبع والأمراض الخبيثة السبعة وأقاليم العالم السفلى السبعة والمناطق السبع للعالم العلوى والسماء وغير ذلك . ولم يذكر أحد تفسيراً مقنعاً لهذا التشبث بالرقم سبعة اللهم إلا لوجود سبعة كواكب سيارة تؤثر فى عالمنا الأرضى تأثيراً فعالا .

ومهما يكن من الأمر فإن المؤلفات والنصوص البابلية القديمة الخاصة بالسحر يمكن تصنيفها فى ثلاث مجاميع رئيسية : فهناك النصوص التنجيمية وفيها تذكر الكواكب على أنها آلهة تؤثر فى حياة الناس وفى أفعالهم ومصائرهم ثم هناك اللوحات الخاصة ببعض الوسائل المستعملة فى الكهانة والتنبؤ بالغيب . أما المجموعة الثالثة فهى الرقى والتعاويذ التى كانت تستخدم

لدرء شرور السحر الأسود وطرد الأرواح الخبيثة التى تحل بالأبدان فتسبب لأصحابها الأضرار والأمراض، إذ كان الاعتقاد أن السبب فى المرض يرجع بوجه عام إلى الشياطين والأرواح الخبيثة ولإبراء الشخص من مرضه يجب طرد هذه الأرواح من البدن ومن ثم كان الطب فى الأزمنة القديمة يعد فرعاً من السحر .

وقد كانت هذه الأرواح الخبيثة أيضاً مسئولة عن هذه الكوارث التى تحل بالعالم من وقت لآخر كالزلازل والبراكين والعواصف الكاسحة والفيضانات المغرقة ومن ثم كان من الضرورى استخدام التعاويذ لمنع عبث هذه الأرواح بالنظام العام الذى يسير العالم على مقتضاه . وقد رتبت هذه التعاويذ فى لوحات مختلفة لكل نوع منها أثره الخاص فى ناحية من هذه النواحى .

وكان يوجد أيضاً إلى جانب هذه اللوحات نصوص طبية وأخرى تلقى فى الاحتفالات المختلفة تضم بعض الطقوس والشعائر السحرية .

كذلك كان لترانيم المديح والثناء والملاحم الدينية التى لا يمكن عدها لأول وهلة بين التعازيم والرقى دلالاتها السحرية .

وتدل التعازيم المختلفة على أنه كان هناك إلى جانب قوة

الألفاظ ذاتها المستخدمة فى هذه التعازيم ــ عوامل أخرى تدخل فى أعمال السحر ولها قوتها السحرية كما توضح لنا ذلك تلك التعزيمة البابلية التالية :ــ

« إنهضى أيتها الآلهة العظيمة واستمعى لشكاتى
امنحينى العدالة وخذى علماً بحالى
لقد صنعت تمثالا لساحرى ولساحرتى
لقد وقفت ذليلا أمامك وعرضت عليك قضيتى
إنه بسبب هذا الضرر الذى ألحقاه بى
وبسبب هذه الأشياء النجسة التى تناولاها
فلتمت هذه الساحرة وامنحينى الحياة أيتها الآلهة
ولتتحطم تميمة هذه الساحرة وليفسد سحرها
وليطهرنى الغصن المقطوف من شجرة البينو
وليخلصنى هذا الغصن . ولتتبدد رائحة فمى الخبيثة فى الهواء
ولينظفنى عشب المشتكل الذى يملأ الأرض
وقبل أن تجعلونى فى إشراق عشب الكنكل
فلأكن فى نظافة عشب اللاردو وبهائه
إن تعويذة الساحرة خبيثة ضارة
فلترتد كلماتها إلى فيها وليقطع لسانها
ولتبتليها آلهة الليل بآفة لسحرها

إن حراس الليل الثلاثة يبطلون سحرها الآثم
وليكن فمها شمعاً واسانها عسلا
ولتذب الكلمة التى قالتها وكانت السبب فى تعاستى كما يذوب الشمع
ولتذب التعويذة التى عملتها كما يذوب العسل
ولتقطع عقدة السحر التى عقدتها إلى شطرين وليتلاشى كل ما صنعته .

هذه إحدى التعازيم التى كانت مستعملة قديماً فى بلاد بابل وأشور ومنها يتبين أنهم كانوا يستخدمون فى سحرهم التماثيل السحرية والعقد وخصائص بعض الأشجار والأعشاب وكانت التماثيل السحرية تصنع فى ذلك العهد القديم من الطمى والشمع والدهن وغير ذلك من المواد كما كانت تستخدم بطرق مختلفة .

وكان السحرة البابليون يصنعون فى بعض الأحيان تمثالا يمثل عدواً من الأعداء ثم يكبلون هذا التمثال بحيث لا يستطيع الكلام أو الحركة فكان أثر ذلك ينصب على الشخص ذاته الذى يمثله هذا التمثال . وكانت تصنع هذه التماثيل أيضاً كى تحل بها الأمراض التى حلت بشخص يراد إبراءه من هذا المرض ، وذلك بوسائل سحرية خاصة . وكانت هذه التماثيل

تذبح فى بعض الأحيان وتدفن .

ولعل هذه الأعشاب الواردة أسماؤها فى التعويذة السابقة كانت من الأعشاب الشائعة الاستعمال فى السحر . ودلت البحوث على أنه كانت هناك مواد أخرى مستعملة فى السحر مثل الخمر والزيت والملح والتمر والبصل واللعاب . كما أن هناك من الشواهد ما يدل على استخدام عصا الساحر التى لا نزال نراها إلى اليوم فى أيدى من يدعون العلم بهذا الفن العجيب . وقد استعملت أيضاً الجواهر الثمينة والمواد الحيوانية المختلفة وبعض أعضاء الحيوان فى الأغراض السحرية .

واستعمل السحرة البابليون أيضاً فى تلك الأزمنة البعيدة الأشربة والمعاجين المختلفة ذات التأثيرات السحرية كما قاموا ببعض الشعائر السحرية كإيقاد النيران وتدخين البخور .

وتدل الأخبار والروايات المتصلة بنوح وفلكه أن بعض أجزاء هذا الفلك قد صنعت بشكل خاص له دلالته السحرية فهم يذكرون أن الصارى وأسقف قمرات سفينة نوح كانت مصنوعة من خشب الأرز وهو خشب من طبيعته إفساد أعمال السحرة والشياطين .

السحر فى بلاد الإغريق :

وهذه أمة أخرى من الأمم القديمة العريقة فى الحضارة ونقصد بها أمة الإغريق التى ذاع صيتها قديماً فى العلم والفلسفة والشعر والفنون القديمة . وكان الرأى عند بدء عصر النهضة والتنوير وقيام العلماء بدراسة التراث اليونانى والرومانى القديم دراسة نقدية عميقة أن أمة اليونان كانت مبرأة من أعمال السحر إذا قورنت بغيرها من الأمم القديمة وأن أمة قد أنجبت أمثال أرسطو وأفلاطون واكسينيفون وأوريبيدس وغيرهم من أساطين الحكمة والفن لا يمكن أن يستهويها فن كفن السحر الذى لا يعد من الفنون الجميلة .

على أن هذا الرأى الذى يذهب إلى تبرئة اليونان القديمة من السحر والسحرة لم يقو على احتمال معاول النقد الحديث لفنون الإغريق وفلسفتهم . فإنه لا يصعب على الباحث أن يلمس آثار السحر فى الديانة الإغريقية وفى التاريخ والأدب الإغريقى الملىء بالرموز والكنايات السحرية . فالأساطير الإغريقية مليئة بالأفعال السحرية العجيبة التى تنقل الكائنات من حال إلى حال وبأخبار السحرة والكائنات العجيبة التى تجمع بين خصائص الإنسان والحيوان ، كما أن مؤلفات

هزيود وهى من أقدم الآثار الإغريقية المكتوبة إن لم تكن أقدمها بها ذكر للأيام السعيدة الطالع والأخرى المنحوسة الطالع . وكان هناك الكهنة القائمون على خدمة معابد ألهة الإغريق . وقد ورد فى الإلياذة أن كاهن معبد أبوللو إله الشعر كان فى استطاعته بأعماله السحرية أن يقضى على الطاعون عندما يريد ذلك .

والإسبرطيون الذين أعجب الفلاسفة بدستورهم ونظامهم التعليمى كانت حياتهم اليومية تتسم فى الواقع بسمات الحياة اليومية البدائية التى تغلب عليها الطقوس والشعائر التى تمت إلى السحر بصلة كبيرة . كما أن المؤرخ اليونانى المشهور هيرودتس ويكنى بأبى التاريخ كان يميل بصفة خاصة إلى تدوين القصص والروايات المتصلة بالتكهنات العجيبة والهواتف التى تخرج من باطن الأرض أو تنبعث من كبد السماء فيفسرها السحرة كما يريدون ويحبون ، فكان تاريخه المشهور ملىء بمثل هذه القصص والأعاجيب كما أن كتابات اكسينيفون مليئة بأخبار القرابين والكهانة والرؤى والأحلام وما تنبى عنه من خيرات أو شرور .

ولا يقف ذكر هذه الأعاجيب والتكهنات الغريبة عند الكتّاب الإغريق العاديين بل إن آخرين ممن عرفوا بالحكمة

والفلسفة مثل أفلاطون أو التعمق فى الأدب مثل أوروبيدس قد ذكروا الرقى والتعاويذ والأشربة التى تولد العشق والهيام وغير ذلك من الأعمال السحرية .

ونحن إذا أدخلنا فى اعتبارنا كل هذه الشواهد الثابتة فى كتب التاريخ والأدب والفلسفة فلا يسعنا إلا القول بأن الإغريق لم يكونوا أقل انغماساً فى السحر من غيرهم من الأمم القديمة وأن السحر كان عنصراً هاماً من عناصر الحضارة الإغريقية .

والغريب أن علم التنجيم وغيره من العلوم الغيبية لم تظهر فى بلاد الإغريق فى شكلها المتقدم إلا فى العهد الهلينى الذى بلغت فيه الحضارة اليونانية أوجها . وتذهب الروايات إلى أن شخصاً يدعى أوثانسى قد نقل فنون السحر فى شكلها المتقدم إلى بلاد الإغريق فى عهد الحروب التى استعرت بين الفرس والإغريق ولم تكن هذه الفنون بدعة جديدة فى نظر الإغريق إنما كانت بمثابة صور أسمى وأكثر تقدماً من الصور السحرية الغليظة البدائية التى كانوا يمارسونها حتى ذلك الوقت .

وقد فسر بعض الباحثين المحدثين كثيراً من الأساطير والاحتفالات اليونانية القديمة تفسيراً سحرياً بل فسروا أيضاً الألعاب الأولمبية والدراما اليونانية هذا التفسير السحرى . ويرى البعض فى زيوس كبير آلهة الإغريق شخصية الساحر

البارع الذى فى استطاعته أن يتخذ أية صورة من صور الكائنات حتى يستطيع أن يتعقب عشيقاته وما كان أكثر من غراميات هذا الإله كما تقص علينا هذه الأساطير .

وقد غالى بعض الكتاب فربطوا بين كثير من مظاهر الحضارة الإغريقية والسحر . على أن ذلك لم يكن سوى رد فعل للدعوة التى ظهرت فى مستهل عصر النهضة وهى التى تذهب كما قلنا سابقاً إلى أن مظاهر الحضارة اليونانية كانت مبرأة من السحر إذا قيست بمظاهر الحضارة فى الأمم القديمة الأخرى .

ولم تكن الفلسفة اليونانية هى الأخرى مبرأة من السحر . فقد قال زيللر Zeller وهو أعمق وأدق من كتب فى الفلسفة اليونانية إن الفيلسوف أمبيدوقليس كان يعتقد فى نفسه القدرة على السحر . نستدل على ذلك من كتاباته ذاتها فقد ذكر أن لديه القوة على مداواة الشيخوخة والمرض وعلى إثارة العواصف أو تهدئتها وعلى استنزال المطر أو حبسه بل وعلى استدعاء الميت إلى الحياة ثانية ..

وكان أفلاطون حذراً غاية الحذر فى حديثه عن السحر فى كتبه الفلسفية وخاصة فى قوانينه . فهو يذكر أن رجال الطب والأنبياء والعرافين هم وحدهم الذين يستطيعون فهم طبيعة السموم التى تعمل عملها بشكل طبيعى وفهم أشياء أخرى مثل

التعاويذ والعقد السحرية والتماثيل الشمعية . ولما كان غيرهم من الناس ليست لديهم أية معرفة يقينية عن مثل هذه الأشياء فمن شأنهم أن لا يأبهوا لها وأن يحتقروها . وهو يعترف مع ذلك أنه ليس هناك من فائدة فى إقناع أكثر الناس بحقيقة هذه الأشياء وأنه من الضرورى سن القوانين لمحاربة السحر والكهانة . والظاهر أن آراء أفلاطون عن الطبيعة مشبعة بعقائد مستمدة من مجوس المشرق أو على الأقل بعقائد أكثر صلة بالسحر منها بالعلم الحديث كما أنها متمشية مع علم التنجيم . وهو يسبغ على الأشياء المادية سمة إنسية ويخلط بين الخصائص الروحية والخصائص المادية .

ويحاول أفلاطون أيضاً أن يفسر السحر تفسيراً طبيعياً أو عقلياً فهو مثلا يقول عن العرافة عن طريق الكبد إن الكبد هو بمثابة المرآة التى تنعكس عليها أفكار المرء وصورة النفس . وهو يتحدث عن الحب المواثم بين العناصر على أنه مصدر الصحة والخصب للنبات والحيوان والإنسان وأن الحب المتهور بينها هو علة الطواعين والأمراض وأن دراسة وفهم هذين النوعين من الحب وصلتهما بدورات الأجرام السماوية وتغير فصول السنة هو ما يسمى بعلم الفلك أو علم التنجيم وأساس قانونه سيطرة الكواكب على المخلوقات الدنيا .

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن السحرة اليونانيين وخاصة فى تساليا قد قاموا بأعمال سحرية غاية فى القسوة والفظاعة . وكان معظم هؤلاء السحرة من النساء اللواتى دمرتهن الرغبة الجنسية الجامحة التى لم يستطيعوا إشباعها أو الحد من ثورتها أو العاهرات اللواتى تقدم بهن العمر فانصرف عنهن المحبون والمعجبون أو النسوة اللواتى انغمسن فى كل ما هو مشين أو قبيح . لقد أكلت الغيرة قلوب هذه المخلوقات التعسة فلم تجد أمامها من ميدان لإشباع رغباتها المكبوتة فيه إلا القبور فكانت تتسالل ليلا إلى المقابر المظلمة وتنتهك حرمة القبور المقدسة وتحتضن بشبق بالغ أجساد الشباب الباردة التى توفيت حديثاً

وكانت هاته النسوة فى الوقت ذاته تضمر الحسد والبغض لصغار الأطفال لأنهم فى أنظارهن ثمرة هذه العاطفة المتبادلة بين الرجل والمرأة لذلك كانوا يختطفون هؤلاء الأطفال ويكتمون أنفاسهم فى صدورهم البريئة انتقاماً من ذويهم لأنهم لم يستطيعوا أن يكونوا مثاهم لهم مثل هذه الذرية التى تعتبر زينة الحياة الدنيا .

وقد ذكر هوراس أخبار بعض هؤلاء النسوة مثل « كانديا » وكانت هذه المرأة اليونانية تدفن الأطفال حتى رؤوسهم ثم تتركهم يموتون جوعاً بينما تضع الطعام حولهم دون أن يستطيعوا الوصول إليه . ولعل أقسى هؤلاء النسوة هن اللواتى كن يقطعن

أوصال هؤلاء الأطفال ثم يقومون بإذابة شحمهم فى أحواض نحاسية ويركبون من هذا الدهن الآدمى دهاناً يخلطونه بعصير بعض النباتات كالسيكران والخشخاش ثم يضمخون بهذا الدهان أجزاء حساسة من أبدانهن فيشعرن بلذة غريبة آثمة كما كانوا أحياناً يضمخن صدوغهن وآباطهن ثم يتركن أنفسهن إلى أحلام اليقظة المليئة بالشهوات الجامحة .

وكان بعض هؤلاء النسوة يخرجن إذا ما جن الليل إلى الغابات والفلوات ويجمعن على ضوء القمر بعض الأعشاب والنباتات الخاصة يستخرجون من بعضها سائلا يعرف بشراب الحب يبيعونه لكل محب أخفق فى حبه كما كانوا يستخرجون من البعض الآخر سمًّا زعافاً يبيعونه لتجار الموت وكانت هذه الأعمال كلها أساساً للسحر الأسود الذى انتشر انتشاراً كبيراً فى العصور الوسطى وأخذ الناس يتعقبون النسوة اللواتى يقمن بهذا السحر الأسود فى تلك العصور ويحكمون عليهن بالموت حرقاً وقد كثر وجود هذه النسوة الساحرات فى إسبانيا وإيطاليا بصفة خاصة حتّى أواخر العصور الوسطى .

ومجمل القول أن الحضارة اليونانية القديمة لم تكن مبرأة من السحر وأن الحياة اليومية فى بلاد الإغريق كانت خاضعة إلى حد كبير لتكهنات الكهان وسحر الساحرين .

الفصل الثانى

السحر عند قدماء المصريين

كان للسحر أثره البالغ على تفكير قدماء المصريين وعلى مظاهر الحياة عندهم وذلك منذ أقدم العهود التاريخية حتى إنه ليصعب علينا أن ندرك كيف كان للسحر كل هذا الأثر البالغ على تفكير القوم وأعمالهم . وهناك من الأدلة الواردة فى أوراق البردى التى تم العثور عليها ما يثبت أن السحر فى الأسرة الرابعة أى منذ أربعة آلاف سنة تقريباً كان فنًّا أو صناعة معترفاً بها بين الفنون والصناعات المصرية .

ومهما يكن من الأمر فإن الاعتقاد فى السحر لم يكن أمراً شائعاً فى مصر قبل عهد الأسر أو قبل العهود التاريخية المصرية فحسب ، بل كان السحر فى مصر القديمة أقدم من الاعتقاد فى الآلهة ذاتها . ولما تطورت الحياة الدينية فى مصر وأصبحت للديانة المصرية نظمها ومعتقداتها وطقوسها وشعائرها الخاصة كان السحر لا يزال عنصراً من العناصر الأصلية فى هذه الديانة المصرية . وقد تأثر الأدب المصرى القديم وكذلك الأساطير

المصرية بالأفكار السحرية وقد يبدو ذلك على أتمه فى أسطورة إيزيس وأوزوريس . وكان المصريون يلجأون إلى الرقى والتعاويذ لطرد الأرواح الخبيثة بل كانوا يعتقدون أيضاً أنهم يستطيعون إرهاب الآلهة ذاتها أو استعطافها بهذه الرقى والتعاويذ كما كانوا يستطيعون بها استحضار الأرواح من العالم غير المنظور وتغيير مجرى الحياة الطبيعية بالخوارق والأعاجيب .

وكان السحر أيضاً يعد من الأمور الجوهرية عند تحضير الموتى للانتقال إلى العالم الآخر. فنجدمثلا أن إجراءات التحنيط والدفن عند قدماء المصريين كانت متصلة اتصالا وثيقاً بالسحر فقد كانوا يتلون عند كل عملية من عمليات التحنيط الرقى والتعاويذ والعبارات السحرية الخاصة التى بدونها لا يمكن أن تتم عملية التحنيط كما يجب .

ونجد أكثر من ذلك أن نصوص الأهرام المكتوبة باللغة الهيروغليفية وهى أقدم صفحة من صفحات الفكر الإنسانى إذ يرجع تاريخها إلى الأسرتين الخامسة والسادسة (٢٦٢٥ — ٢٤٧٥ ق.م.) تحوى آثاراً واضحة من السحر بل لقد عدها بعض علماء الآثار مجرد مجموعة من التعاويذ والرموز السحرية . كما أن المناظر والرسوم المنقوشة على جدران قبور قدماء المصريين مثل قبور نبلاء الأسرتين الخامسة والسادسة قد نقشت بقصد

سحرى إذ كان القصد منها أن تتحقق محتوياتها فى الحياة الأخرى. وقد أخذ قدماء المصريين منذ الأسرة الثانية عشرة يرسمون داخل توابيت الموتى المناظر المألوفة لدى المتوفى لهذا الغرض ذاته .

وفى عهد الإمبراطورية المصرية القديمة كان كتاب الموتى المشهور عبارة عن مجموعة من الصور السحرية والتعاويذ والرقى يستخدمها المتوفى عند ما ينتقل إلى الحياة الأخرى . ولما كان هذا الكتاب لم يظهر إلا فى عهد الإمبراطورية المصرية فقد ذكر بعض علماء الآثار المصرية أنه كان يدفن أيضاً مع الفراعنة فى عهد الدولة القديمة كتاب يضم بعض الألفاظ والعبارات السحرية وكان الغرض من هذا الكتاب وغيره من النصوص التى تنقش على القبور والتوابيت وكذلك التمائم والتعاويذ المختلفة إخضاع الآلهة لسلطان المتوفى حتى يستطيع إجبارهم على تنفيذ رغباته وإرادته . ويرى البعض أن هذه النقوش الجنائزية قد ازدادت زيادة ملحوظة فى العهد المصرى المتأخر وذلك تحت تأثير الكهنة ورجال الدين .

ولم تكن تخل مظاهر الحياة اليومية عند قدماء المصريين من آثار السحر حتى إن المصرى فى العهد القديم لم يكن يحضر طعامه أو يتهيأ للنوم إلا بعد تلاوة بعض التعاويذ والصيغ السحرية الخاصة .

ومن المعروف أيضاً أن الطب عند قدماء المصريين كان مشحوناً بالسحر والطقوس السحرية . فالعلاج الرئيسى عندهم كان عبارة عن مجموعة من الرقى والتعاويذ يتلونها عند رأس المريض فيبرأ من مرضه . وكان الأطباء المصريون يستخدمون فى علاجهم أنواعاً مختلفة من الأعشاب النباتية يخلطون بعضها ببعض مع تلاوة بعض الألفاظ والعبارات السحرية فتكسبها قوتها الشافية وهم كانوا يفضلون العقاقير المركبة من جملة عناصر على العقاقير البسيطة التركيب . كما كانوا يستخدمون بعض أجزاء الحيوان فى تركيب الأدوية والعقاقير خصوصاً ما كان متصلا منها بالأعضاء التناسلية إذ كانوا يعتقدون أنها تمنح الحياة وتطيلها . واستعملوا أيضاً الأجزاء القذرة من جسم الحيوان إذ كانوا يرون أنها طاردة لشياطين الأمراض وذلك بسبب خصائصها الباعثة على الاشمئزاز .

والظاهر أن المصريين القدماء لم ينظروا إلى الأمراض على أنها من أفعال الجن والشياطين والأرواح الخبيثة بمثل القدر الذى كان عليه هذا الاعتقاد عند البابليين والأشوريين . على أن ما لدينا من كتابات ونصوص مصرية قديمة لا تقدم لنا المعلومات الكافية فى هذا الموضوع ، ولعل السحر فى مصر القديمة كان يستخدم لمعالجة الأمراض بوجه عام سواء أكان

المرض ينسب إلى فعل الأرواح الشريرة أو يرجع إلى أسباب أخرى . .

وقد ازداد الالتجاء إلى السحر فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة أكثر مما كان عليه الحال فى الدولة القديمة نستدل على ذلك من وفرة النقوش والكتابات السحرية التى تم الكشف عنها ويرجع تاريخها إلى هاتين الدولتين .

وكانت مصر القديمة موطن الفنون والصناعات المختلفة ويستدل من تاريخ هذه الفنون والصناعات أنه لم تكن تتم أية عملية من العمليات الصناعية أو الكيماويه إلا بمصاحبة بعض الصيغ الدينية والعبارات السحرية التى كانت تعتبر أساسية لنجاح هذه العمليات كما كانت أساسية فى إبراء المرضى .

ويرجع علم الكيمياء القديم إلى أعمال المصريين القدماء المشتغلين بصياغة الذهب والأخلاط المعدنية من ناحية كما يرجع من ناحية أخرى إلى نظريات وآراء فلاسفة الإغريق عن أصل العالم والمادة الأولى والعناصر الأربعة . ثم إن كلمة كيمياء ذاتها Chemistry مشتقة هى نفسها من اسم مصر القديم وهو « كمت » Qemt ومعناه الحرفى أسود دلالة على طمى النيل .

وكان يطلق هذا الاسم أيضاً على المسحوق الأسود الذى كان يستخرج من الزئبق أثناء القيام بتركيب الأخلاط المعدنية

المختلفة . ويقول بعض المؤرخين إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن هذا المسحوق هو أساس جميع المعادن وله خصائص عجيبة غريبة وكانوا ينظرون إليه على أنه من عين الجسد الذى سيكون لأوزوريس فى العالم السفلى وكلاهما أصل الحياة والقوة فى أنظار قدماء المصريين .

وكانت هناك صلة وثيقة بين السحر المصرى والسحر اليهودى يدل على ذلك الإشارات الكثيرة التى تؤيد هذه الحقيقة الواردة فى كتب الأدب والدين .

ومن المعلوم أيضاً أن اليونانيين والرومانيين وغيرهم من أهل العالم القديم كانوا يرون أن السحر المصرى أسمى بكثير وأكثر عمقاً من سحر البلاد الشرقية الأخرى . وكان سحرة البلاد الأخرى القريبة من مصر يسعون جهدهم لتقليد أعمال السحرة المصريين والتشبه بهم فى كل ما يصنعون .

ومعلوم من القرآن والكتاب المقدس أن النبى موسى كان من الإسرائيليين الذين شبوا فى بلاط فرعون وبرزوا فى فنون السحر . وقصة موسى مع سحرة فرعون معروفة مشهورة إذ ألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم فإذا هى حيات يركب بعضها بعضاً ثم ألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ابتلع جميع ما ألقى السحرة من حبال وعصى . ثم إن موسى قد شق البحر

أيضاً بعصاه عندما خرج هو وجنوده من مصر إلى فلسطين وهذه كلها أعمال واردة فى الكتب المقدسة والتواريخ وهى دليل على ما بلغه السحر فى مصر فى ذلك العهد البعيد .

وكان السحر فى الوقت الذى تبارى فيه موسى مع سحرة فرعون قد بلغ منتهى ازدهاره وعنفوانه وأصبح عنصراً هاماً من عناصر الديانة المصرية .

ويقال إن ولد رمسيس الثانى كان مبرزاً فى فنون السحر وقد اشترك مع سحرة فرعون فى المباراة السحرية مع موسى. وذلك حوالى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد . ولشيوع السحر فى مصر القديمة كان بعض الناس فى الزمن القديم يعتقدون أن مصر مسكونة بجنس من السحرة الجبابرة . ولقد غدا اسم مصر نفسه مرادفاً لكلمة سحر .

ويذهب علماء الآثار المصرية إلى أن الشعائر والطقوس السحرية ترجع إلى ما قبل عهد الأسر بل وإلى ما قبل العهد التاريخى . وتذهب الأساطير إلى أن شم ولدنوح جاء إلى مصر وهو فى الثلثمائة من عمره وذلك بعد الطوفان بمائة وتسعين عاماً وحكم مصر لمدة ١٦١ سنة أخرى وكان السحر وقتذاك فى مرتبة عالية . وتذهب الرواية اليهودية إلى أن نوحاً نفسه كان ساحراً .

وقد حكت القصص الكثيرة الواردة فى الكتابات المصرية

واليونانية الإجراءات السحرية لإحياء الموتى . ومعروف أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الموتى سوف يبعثون فى الحياة الأخرى ولكن هناك روايات تدل على أن بعض محاولات السحرة المصريين كانت ترمى إلى إعادة الحياة أو بوجه أصح إلى إحياء البدن بعد موته وأن هذه المحاولات قد تمت بنجاح أكثر من مرة .

وقد حفظت لنا بعض الأساطير المصرية الكثير من الأعاجيب التى كان يقوم بها السحرة فى مصر القديمة منها أنهم كانوا يصنعون التماثيل على هيئة التماسيح ثم يقرأون عليها بعض التعاويذ ويلقون بها فى الماء فتنقلب تماسيح حية تفترس كل من يقترب منها أو يشقون الماء بلمسة من عصيهم فيستطيع أن يرى المشاهد قاع البحيرة أو النهر مثلا . وتذكر الروايات أن الملك خوفو مشيد الهرم الأكبر كان يلذ له مشاهدة أعمال السحرة وأعاجيبهم . ففى يوم من الأيام كان يتحدث مع ولده الأمير ددف حور عن عجائب ما قام به السحرة فقال له الأمير إنه يعرف كثيراً من قصص هؤلاء السحرة ولكنه سوف يحدثه عن ساحر لا يزال على قيد الحياة يدعى ددى وهو يبلغ من العمر عشراً ومائة سنة ولكنه على الرغم من كبر سنه يأكل فى اليوم خمسمائة رغيف إلى جانب فخذ عجل ويشرب

مائة قدر من الجعة وفى استطاعته أن يرجع الحياة إلى جسد قطع رأسه بأن يضم الرأس إلى الجسد ، وفى استطاعته أيضاً أن يجعل أسداً يتبعه دون أن يقوده بحبل . وقد رغب خوفو فى رؤية هذا الساحر ومشاهدة أعاجيبه فطلب من ولده الأمير ددف حور أن يحضر هذا الساحر ، وكان يعيش فى « دد سنفرو » إلى بلاطه . فأعدت السفن وأبحر الأمير فى النيل مصعداً حتى وصل مدينة دد سنفرو حيث رست السفن ومن ثم سار فى محفته المصنوعة من الأبنوس إلى مسكن الرجل الكهن فوجده راقداً على حصير يدلك ساقيه أحد الخدم .

فتقدم إليه الأمير وسأله عن حاله ثم عرض عليه رسالته وأنه قادم إليه ليدعوه باسم أبيه الملك خوفو لكى يحضر إلى بلاطه ويكون موضع الرعاية والإكرام وأن يقوم بعرض بعض أعماله السحرية على الملك الذى يحب أن يرى بنفسه الأعمال التى اشتهر بها ددى فى أنحاء البلاد كلها . وقد رحب ددى بالأمير وأظهر استعداده لتلبية دعوة الملك فمد الأمير ددف حور يده إليه وساعده على الوقوف ومشى معه حتى الشاطئ ماداً بذراعه إليه ليعتمد عليها وهكذا سافرا معاً فى سفينة الأمير متجهين نحو الشمال . وقد وضع تحت تصرف هذا الحكيم الساحر سفينتان لنقل أفراد أسرته وكتبه .

وعندما وصل الركب إلى بلاط خوفو أسرع الأمير ددف حور ودخل على الملك خوفو لينبئه بحضور الساحر . وما إن سمع خوفو بنبأ حضوره حتى أمر بأن يدخل عليه على الفور . وذهب جلالته إلى بهو الأعمدة بالقصر حيث أدخلوا عليه ددى هذا فقال جلالته : « كيف ياددى أنى لم أرك حتى الآن ؟ » فقال ددى : «من يُدعَ يُجِب ، لقد دعانى الملك وها قد أتيت». فقال الملك: «أحقًّا ما يرويه الناس عنك من أنه فى وسعك إعاده الرأس المقطوع إلى الجسد ؟ » فأجاب ددى : « نعم يا سيدى الملك إننى أستطيع ذلك » . فقال الملك : « أحضروا لى أسيراً من السجن لتنفذ فيه عقوبته » فقال ددى : « أرجو أن لا يكون هذا فى إنسان يا سيدى الملك . فليأمر الملك بتجربة ذلك فى حيوان » . فجىء له بإوزة فصل عنها رأسها ووضع جسدها فى الجانب الغربى من البهو ووضع رأسها فى الجانب الشرقى من البهو وتلا ددى تعويذة سحرية فوقفت الإوزة وتحركت وكذلك تحرك الرأس ولما بلغ كل منهما الآخر كانت الإوزة تصيح ثم جىء له ببطة فجرى لها ما جرى للإوزة . بعد ذلك أمر الملك بإحضار عجل فصل رأسه عن جسده فقرأ ددى تعويذة سحرية فوقف العجل . وهكذا أتى ددى بكثير من الأعاجيب مما جعل الملك خوفو يثق فى حكمته وفى قوته السحرية.

ومهما يكن من الأمر فقد كان فى استطاعة المصريين أن يقوموا بأفعال عجيبة غريبة لا تقف عند حد إرهاب الشياطين أو استحضار أرواح الموتى أو إحياء الأجساد الآدمية والحيوانية بعد موتها بل كانوا يقومون بأفعال سحرية يقصدون بها إرهاب إله الشمس أو إله القمر وغيرهما من الكائنات السماوية أو إجبار الأجرام السماوية على أن تبوح بأسرارها وبما سيحدث فى المستقبل وألا يعملون على زعزعة السماوات وغير ذلك من الأعمال التى فوق قدرة البشر . وكانت هذه الأعمال وأمثالها تحتل مكانة عالية فى أعين الكهنة المصريين وفى تعاويذهم لأنهم هم أيضاً كانوا يمارسون السحر وكانت تعاويذهم تضم فى بعض الحالات تهديدات موجهة إلى الآلهة ذاتها .

على أن قدماء المصريين قد برزوا بصفة خاصة فى صنع الأحجبة والتمائم وكانت التميمة الشائعة هى الجعران المصنوع غالباً من الصلصال أو الحجر . وكان الجعران فى مصر القديمة رمزاً لإله الشمس أى مصدر الحياة وكان الاعتقاد أنه إذا وضع الجعران فى القبر مع الميت فإن له القدرة على إعادة الحياة إلى هذا الميت ، وكان يتعين فى هذه الحالة تلاوة بعض التعاويذ والألفاظ السحرية على جسد المتوفى قبل وضعه فى القبر وقد انتقلت هذه التمائم من مصر إلى بلاد الإغريق .

ومن السمات المتصلة بالاعتقاد السابق هو أنه لكى يجبر الساحر الأرواح والآلهة على إطاعة أوامره وإرادته سواء أكانت إرادة طيبة أو شريرة كان عليه أن يكون على دراية بالألفاظ الخاصة الباعثة على القوة والسلطان وعلى معرفة بأسماء الآلهة وهو بهذا يكون له القدرة على الأرواح والآلهة مهما كان عددها وقوتها وتسخيرها وفق إرادته .

ولم يكن البشر وحدهم هم الذين يمارسون السحر فى مصر القديمة بل كانت الآلهة أيضاً لا تستغنى عن السحر فى تصريف أمورها إذ كانت تتخذ التمائم للحماية وتستخدم التعاويذ والصيغ السحرية لكى يقهر بعضها البعض وكانت إيزيس من دون جميع الآلهة الآخرين ربة السحر التى اشتهرت بوصفها عظيمة الشأن فى كلمات السحر .

وكانت الصيغ السحرية التى يستعملها المصريون تنشأ غالباً عن فكرة واحدة فقد كان الساحر يفكر فى حادث من حوادث الآلهة يكون هذا الإله قد أصاب فيه نفس النجاح الذى يود ذلك الساحر أن يحققه لنفسه . فكان يتخيل نفسه كما لو كان هو الإله ويتلو نفس الكلمات التى فاه بها الإله فى ذلك الحادث ، وما دام أثرها فيما مضى كان فعالاً قوياً فقد كان الساحر واثقاً من نفعها وإتيانها بالفائدة فى حالته هذه أيضاً .

فإذا أراد مثلا أن يبرد حرقاً ويشفيه فإنه كان يستعمل دواء يتكون من لبن امرأة تكون قد أنجبت ولداً بعد أن يتلو عليه الصيغة الآتية : « إبنك حوريس يحترق على الأرض الجافة ، هل هناك ماء ؟ لا ماء هناك . إن الماء فى فمى ونيل يجرى بين ساقى إنى آت لأطفئ النار » وواضح أن هذه الكلمات قالتها إيزيس فى الأسطورة المصرية الخالدة المعروفة باسم « إيزيس وأوزوريس » فإن خادمة إيزيس تناديها لتخبرها بأن الكوخ الذى أخفت فيه الطفل الصغير حوريس من اضطهاد طيفون قد أمسكت به النار فتصرخ مرتاعة طالبة ماء ولكن لم يكن هناك ماء فى متناول اليد ولكن الإلهة إيزيس الذكية عرفت كيف تساعد نفسها فى هذا المأزق الحرج وتنطق بهذه الكلمات السابقة الذكر .

وكان الساحر يعتقد فى أن ترديده لهذه الكلمات بعينها التى فاهت بها الإلهة إيزيس سوف يطفئ آلام الجرح المحروق .

ولم يكن الأمر يخرج عن ذلك فيما يتصل بالرقى والتعاويذ التى كانت تتلى على العقاقير المختلفة مثال ذلك العقار الطارد للزكام وهو لبن امرأة تكون قد أنجبت ولداً إذ كانت تتلى عليه التعويذة التالية :

« آلا فلتذهب أيها الزكام يا ابن الزكام ، يا من تحطم

العظام وتفسد الدماغ وتفصل الدهن وتمرض الفتحات السبع في الرأس ، إن خدم رع يتوسلون إلى تحوت — انظر إني أحضر وصفتاك إياك ، ودواءك إليك : لبن امرأة أنجبت ولداً وكرات العطور. إن هذا يطردك وإن هذا يعافيك، إن هذا يشفيك، وإن هذا يطردك. اخرج على الأرض — رائحة كريهة — رائحة كريهة [1] . »

ورقية البرد هذه مأخوذة من أسطورة خاصة بشيخوخة إله الشمس ومرضه . فالإله رع قد أصابه برد أدار رأسه فالتمس أتباعه من إله العلم دواء فأحضره الإله في الحال وأعلن أن المرض لا يلبث أن ينصرف عنه .

وإذا كان الساحر في هذه الأحوال يردد كلمات الإله ويستعين بها في أعماله السحرية ففي أحوال أخرى كان يكفيه أن يدعى أنه هو الإله الذى يرغب أن يتملك قوته .

وكان السحر يزداد أثره ومفعوله إذا استطاع الساحر بدلا من استخدام الاسم العادى للإله أن يسميه باسمه الحقيقي أى بذلك الاسم الخاص الذى كان يمتلكه كل إله وتستقر فيه قوته فكل من عرف هذا الاسم الحقيقي اكتسب قوة صاحبه . فالإلهة إيزيس قد استطاعت أن تجعل إله الشمس يكشف

---

(١) نقلا عن كتاب مصر والحياة في العصور القديمة تأليف إدولف إرمان ، الترجمة العربية ، ص ٣٨٣ .

لها عن اسمه الحقيقى الخفى ومن ثم أصبحت تستمتع بنفس القوة التى كان يستمتع بها هذا الإله . ومن أجل هذا كانت التعويذة التالية التى تشير إلى هذا الاسم من أقوى التعاويذ ضد التماسيح :

« أنا المختار من بين الملايين ، الذى يخرج من العالم السفلى
الذى لا يعرف اسمه أحد
إذا نطق اسمه على مجرى الماء جف
وإذا نطق اسمه فوق اليابسة جعل النار تشتعل
أنا شو ، صورة رع الذى يجلس فى عين أبيه
إذا كان هناك أحد فى الماء (أى التمساح) يفتح فمه
وإذا ضرب بذراعيه جعلت الأرض تسقط فى الماء
وجعلت الجنوب شمالا والأرض تنقلب رأساً على عقب » .

وكانت الصيغ السحرية على أشد ما تكون إذا تليت بصوت مرتفع كما تكون أشد أثراً إذا كتبت أو نقشت وهذا يفسر لنا كثرة الصيغ السحرية التى نقشت على المقابر وعلى توابيت الموتى . وكان الاعتقاد أنه كلما زاد عدد مرات كتابتها زاد اليقين فى أثرها وقوة مفعولها .

وكانت الصيغ السحرية تتلى على أشياء مختلفة فتكسبها قوة سحرية خالدة . فمثلا إذا تليت تعويذة التمساح السابقة على بيضة مصنوعة من الطمى وحملها معه البحار فى سفينته

فإن التمساح الذى يطفو على سطح الماء مهدداً البحار لا يلبث أن يغرق فى جوف الماء .

كما كان فى الإمكان عمل أشكال وتماثيل من الورق أو الشمع وتلاوة التعاويذ عليها فإذا ما نقلت هذه الأشكال والتماثيل خلسة إلى بيت العدو جلبت عليه المرض والشقاء . وقد ذكرت الروايات أنه فى عهد رمسيس الثالث دبر أشخاص من البيت المالك مؤامرة على الملك وكان الحريم هو مركز هذه المؤامرة إذ كان للملك محظية تدعى « تى » تآمرت مع سيدات أخريات من البيت المالك ضد مولاهن الملك بقصد تنصيب « بنتورع » ولد « تى » على العرش . وقد استحلت نساء القصر فى سبيل الوصول إلى هذا الغرض جميع الوسائل حتى إنهن لجأن إلى السحر لكى يحدثن الضرر بالملك، فإن المشرف على الأبقار الملكية وهو رجل عالى المقام حصل على كتاب سحرى من مكتبة فرعون الخاصة وصنع طبقاً لمواصفات الكاهن دمى معينة من الشمع تليت عليها التعاويذ وهربت إلى القصر بقصد إحداث الضرر والهلاك للملك .

واعتاد المصريون القدماء أيضا أن يصنعوا دمى صغيرة تمثل خدم المتوفى والآنية التى كان يستعملها فى حياته ثم تدفن فى المقبرة مع المتوفى بعد أن تملأ بالقوة السحرية عن طريق تلاوة

الصيغ السحرية وذلك بقصد أن يستعملها المتوفى فى حياته الثانية وكان ذلك هو الحال بالنسبة للحلى الصغيرة المصنوعة من الحجر أو القاشانى وتدفن مع الجثث المحنطة .

وكانت هناك تميمة تصنع من العقيق وتتلى عليها هذه الكلمات : « يادم أزيس ، ويا سناء إيزيس ، وقوة إيزيس السحرية ، وياتميمة تحمى هذا الرجل العظيم . حذار من أن تأتى ضرراً يصيبه » . فإذا ألبس المتوفى هذه التميمة فإن إيزيس تحميه ويبتهج حوريس ويقر عيناً حين يراها .

ولم يكن استخدام هذه التمائم مقصوراً على الموتى فحسب بل كان الأحياء أيضاً يعلقونها بخيوط حول رقابهم للحماية . وكانت هناك أنواع مختلفة الأشكال من هذه التمائم توضع كقطعة وسطى فى عقود من الخرز عثر على الكثير منها فى أقدم المقابر . وفى العصر المتأخر أصبحت الآلهة والحيوانات المقدسة نفسها لا تستغنى عن مثل هذه الوقايات .

وليس من شك أن هذا الاعتقاد الراسخ فى قوة السحر قد عاق تقدم الوعى الثقافى عند قدماء المصريين إذ من ذا الذى يجشم نفسه اتباع الطريق الطبيعى المعتاد الذى غالباً ما يكون طويلا وصعباً للوصول إلى نتيجة من النتائج فى حين أنه يستطيع الوصول إلى نفس هذه النتيجة عن طريق القوى السحرية .

والطب عند قدماء المصريين كان مليئاً أيضاً بالرقى والتعاويذ التى كانت تقرأ على العقاقير المختلفة لتكسبها القوة اللازمة . مثال ذلك كان من الواجب على المرء عند نزع كل ضماد أن يتلو الصيغة التالية : « قد خلص قد خلص بوساطة إيزيس . لقد خلص حوريس بواسطة إيزيس من كل شر اقترفه أخوه سيت نحوه عندما قتل أباه أوزوريس . أى إيزيس ، أيتها الساحرة العظيمة ، خلصينى من جميع المساوئ الحمراء ومن مرض الإله ومرض الآلهة . ومن الموت ، والموت ، ومن العدو ، والعدوة اللذين يعترضانى كما تخلصت أنت وكما ولدت ابنك حوريس لأنى دخلت النار وخرجت من الماء . . . » .

وكان المريض عند تناول الدواء عليه أن يتلو التعويذة التالية : « تعال أيها الدواء تعال واطرده من قلبى ومن أعضائى هذه ، فالرقى عظيمة المفعول فى الدواء » .

الفصل الثالث

سليمان الحكيم
بين النبوة والسحر

تذهب الروايات المختلفة إلى أن سليمان الحكيم كان أعظم السحرة على الإطلاق فقد كان له السلطان المطلق على الإنس والجن وسخر الله له الريح وكان يعرف منطق الطير والحيوان والهوام جميعاً ..

والواقع أن السحر لم يرد فى القرآن مرتبطاً باسم سليمان إلا فى آية واحدة من سورة البقرة وهى : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

والذى عليه رأى أكثر المفسرين أن اليهود سواء من كان منهم فى زمن سليمان عليه السلام أو فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام كانوا من السحرة الذين أتقنوا هذا الفن . وقد ذهب هؤلاء السحرة من اليهود إلى أن سليمان إنما أوجدْ هذا الملك العريض والجاه العظيم بسبب السحر به سخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره .

ومن الواضح أن فى القرآن والتوراة إشارات كثيرة إلى عجائب الأفعال والخصال التى كانت لهذا النبى العظيم . ففى سورة الأنبياء الآيات : « ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » . « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين . » . « ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين » .

وفى سورة النمل الآيات : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » . « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » .

وفى سورة سبأ الآيات : « واسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر . وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب

السعير» . «يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور» .
« فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » .

لقد حكم سليمان أرض الميعاد بعد وفاة أبيه داود وكان ثالث ملوك إسرائيل وكان سنه عندما اعتلى العرش ثلاث عشرة سنة وقد ورث عن أبيه داود نبوته وحكمته وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان لداود عليه السلام تسعة عشر ابنا .

وكان أبوه يشاوره فى كثير من أمور ملكه مع صغر سنه وذلك لوفور عقله وعلمه وحكمته . وتذهب الرواية أن الله تجلى لسليمان فى منامه فسأله أن يهبه الحكمة فوهبه الله الحكمة ثم وهبه أكثر من ذلك الثراء العريض والمجد العظيم وغير ذلك من أنواع المناقب والمواهب . وكان ملكه ما بين الشام واصطخر وقيل إنه ملك الأرض كلها .

وواضح من هذه الآيات القرآنية أن سليمان كان يسيطر على شياطين الإنس والجن فكان يسخر الجن لأغراضه كما كان يسخر الريح ومختلف الحيوان والطير . ولكنه لم يكن يأتى بهذه الأفعال العجيبة بفعل السحر إنما كان ذلك بإذن من

ربه تعالى الذى وهب سليمان هذه المناقب والمواهب وخصه بها .

فسليمان الحكيم لم يكن ساحراً بالمعنى المقصود بهذه الكلمة إنما قد خصه الله بعلم من عنده وميزه بهذه الصفات والملكات وكان لها سليمان من الشاكرين. غيرأن من قبائح أعمال اليهود أنهم نبذوا كتاب الله وأقبلوا على السحر ودعوا الناس إليه وكان هذا شأنهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم . ثم إن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان عليه السلام ويعدونه ملكا من ملوك الدنيا . وكانوا يرون أن سليمان إنما أقام هذا الملك العريض بسبب السحر .

والذى جاء فى الروايات الإسلامية أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت أو غيث أو أمر ثم يأتون الكهنة فيخبرونهم بما سمعوا فتحدث الكهنة الناس بذلك فيجدونه كما قالوا حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأضافوا على ما استمعوا الكثير من الأكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة . وقد دون الناس ذلك الحديث فى الكتب وفشى فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب . وكانوا يقولون إن هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وإنه إنما وجد ذلك الملك العريض والجاه العظيم بسبب السحر به سحر الجن

والإنس والريح التى تجرى بأمره .

ولما علم سليمان بذلك بعث فى الناس من جمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من كرسيه إلا احترق . وقال لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه . فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون حقيقة هذا النبي العظيم وجاء بعد ذلك جيل آخر من الناس تمثل الشيطان فى صورة إنسان ثم أتى نفراً من بنى إسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً قالوا نعم قال فاحفروا تحت عرش سليمان وذهب معهم فأراهم المكان فقام ناحية فقالوا له فادن قال لا ولكننى هنا فى أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلونى فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم فشا فى الناس بعد ذلك أن سليمان كان ساحراً .

واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب . فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان فقالت اليهود انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً يركب الريح فأنزل الله عذر سليمان « واتبعوا ما تتلوا الشياطين . . . » الآية .

غير أنه لم يكن من السهل أن تنتزع من العقول ذكرى تلك الآراء التى زورها اليهود على الناس بأن سليمان كان ساحراً عظيماً بل كان عظيم السحرة على الإطلاق والتى ظلت مسيطرة على الأذهان قروناً طويلة حتى كان الكثيرون لا يعرفون من أمر سليمان إلا هذه الناحية السحرية وهذه الأفعال والمواهب العجيبة التى أشار إليها القرآن والكتاب المقدس .

وقد أدخلت على سيرة هذا النبي الكريم الكثير من القصص والأساطير مما نراه فى قصص ألف ليلة وليلة وغيره من الكتب ، بل إن كثيراً من كتّاب الفرس والعرب والترك مثل الفردوسى وسعد الدين وإسحق بن إبراهيم وأحمد الكرمانى وشمس الدين السيواسى قد بالغوا فى ذكر أعاجيب سليمان وذكروا كثيراً من تفاصيل حياته التى أغفلها اليهود بحيث غدا سليمان بن داود فى كتبهم عبارة عن شخصية أسطورية دون أن يكون لها ضريب على الإطلاق فى كتب الأدب الأخرى حتى ولا فى أساطير الهند المغرقة فى الخيال . فسليمان فى مؤلفات هؤلاء الكتّاب وأمثالهم ليس أحكم وأغنى ملوك الأرض فحسب بل إن علمه قد جعله أقوى الرجال وله الأمر على جميع الإنس والجن فى الأرض والسماء كما دان لسلطانه كل ما فى الماء والأرض والهواء من مخلوقات بل إن النباتات ذاتها قد باحت له بأسرارها وخواصها .

ويذهب الباحثون فى تاريخ السحر أن هذه الكتب والرسائل السحرية التى تنسب إلى سليمان كانت الصلة بين فنون السحر فى المشرق والبلاد الغربية .

وقد أفاض بعض كتّاب العرب فى ذكر تفاصيل الأعاجيب التى كان يقوم بها سليمان فعند أغلب هؤلاء الكتاب أن سليمان لم يكن يركب الريح على بساطه منفرداً إنما كان يركب معه رجال حاشيته جميعاً وكان هذا البساط من الحرير الأخضر المنسوج بالذهب وفى رواية يهودية أن هذا البساط كان فرسخاً فى فرسخ وأن الطير كانت تظلله بأجنحتها من وهج الشمس . وهم يرجعون جميع قوى سليمان وسلطانه على جميع الكائنات وخاصة الجن إلى خاتم سحرى فى أصبعه كان مرصعاً بجواهر الملائكة الموكلة بالعناصر الرئيسية الأربعة كما كان عليه الاسم الأعظم . وفى الخبر أن سليمان سأل الملاك ميخائيل أن يعاونه على التغلب على الجن والشياطين فأعطاه هذا الخاتم السحرى وبه استطاع أن يسحر الجن وأن يحصل منهم على جميع المعلومات المتصلة بهذا العالم غير المنظور أى عالم الجن والشياطين وأن يعرف أسماءهم والرموز التى تشير إلى كل واحد منهم بحيث إذا ذكر هذا الرمز أتاه الجنى طائعاً ملبياً لجميع ما يأمره به . وهم يذكرون أكثر من ذلك أن هذه المعلومات قد

ضمنها كتابه الذى ينسب إليه وهو المعروف باسم « مفتاح سليمان » .

ومن أخبار سليمان أيضاً فى عالم السحر أنه كان يستطيع اجتذاب المردة والشياطين وحبسهم فى القماقم ثم ختمها بخاتمه فلا يستطيع الجنى الخروج من القمقم ما دام خاتم سليمان عليه كما ورد فى قصص ألف ليلة وليلة من خبر الجنى الذى حبسه سليمان فى القمقم مدة عشرة آلاف سنة . ثم هناك أيضاً درع سليمان وكان يتخذ دريعة ضد أعمال الشياطين .

وكان الهدهد هو رسول سليمان إلى الملوك فى كافة أنحاء الأرض وهو الذى أتاه بخبر بلقيس ملكة سبأ مما لا داعى لذكره فى هذا المقام .

وقد خص الله سليمان عليه السلام بالخيل الجياد العراب وقيل إنه ورث من أبيه داود ألف فرس وكان أبوه أصابها من العمالقة . وتذهب الرواية أن سليمان صلى صلاة الظهر وقعد على كرسيه فعرض عليه منها تسعمائة فاشتغل بحسنها وكثرتها والإعجاب بها حتى غابت الشمس وفاتته صلاة العصر ولم يعلمه أحد بذلك هيبة له فاغتم لذلك وقال ردوها على فردوها فعقرها بالسيف وقربها إلى الله تعالى وبقى منها مائة فرس وما فى أيدى الناس من الخيل العراب فهى من نسل تلك المائة .

ومهما يكن من الأمر فإننا لا نستطيع أن نخرج بنتائج إجمالية موثوق بها من هذه القصص وأمثالها . فالعلماء فى العصور القديمة الذين انصرفوا إلى دراسة الظواهر الطبيعية والأعشاب النباتية وخواص الأحجار المختلفة والأجرام السماوية كانوا يوصفون عادة بأنهم من السحرة بل إننا نجد عالماً مثل البرتوس ماجنوسى Albertus Magnus أسقف راتسبون فى العصور الوسطى وكان له مجد يقارب مجد سليمان من حيث اتصاله بالجن والشياطين قد وصف بالسحر وذلك لأنه كان فى واقع الأمر من علماء الطبيعة البارزين .

هذا وتختلف الروايات فى ذكر وفاة سليمان فتذهب بعض الروايات أن الله جل جلاله قد تخلى عنه فى أخريات أيامه لخروجه عن جادة الصواب وأن سليمان عند ما جاءه الموت سأل الله أن يخفى خبر موته إلى أن تتم الأعمال العظيمة التى كان قد بدأ فيها بمساعدة الشياطين . على أننا سوف نكتفى بذكر الرواية الإسلامية فى هذا الموضوع فهى تذكر أن سليمان قال ذات يوم لأصحابه إن الله تعالى قد آتانى من الملك ما ترون وما مر على يوم فى ملكى صاف من الكدر وقد أحببت أن يكون لى يوم واحد يصفو لى إلى الليل ولا أغتم فيه وليكن ذلك اليوم غداً . فلما كان من الغد دخل قصراً له

وأمر بإغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ومنع من رفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئاً يسوءه ثم أخذ العصا بيده ووضعها فوق خصره واتكأ عليها ينظر إلى مماليكه إذ نظر شاباً حسن الوجه عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب القصر فقال له السلام عليك يا سليمان فقال وعليك السلام كيف دخلت على هذا القصر بغير إذنى وقد منعت من دخوله أما منعك البواب والحجاب ، أما هبتنى حين دخلت قصرى بغير إذنى ، فقال أنا الذى لا يحجبنى حاجب ولا يدفعنى البواب ولا أخاف الملوك ولا أقبل منهم الرشا وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن . فقال له سليمان فمن أذن لك فى دخوله فقال له ربى . فارتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت فقال له أنت ملك الموت قال نعم قال فيم جئت قال لأقبض روحك قال يا ملك الموت هذا يوم أردت أن يصفو لى ولا أسمع فيه ما يغمنى فقال يا سليمان إنك أردت يوماً يصفو لك فيه عيشك حتى لا يغمك فيه شيء وذلك يوم لم يخلق فى الدنيا فارض بقضاء ربك فإنه لا مرد له ، قال فاقبض كما أمرت فقبض ملك الموت روحه وهو متكئ على عصاه .

وذكروا أن الشياطين كانت تجتمع حوله وحول محرابه ومصلاه أينما كان وكان للمحراب بابان باب بين يديه وباب

خلفه فقال بعض الشياطين لصاحبه إن كنت جليداً فادخل من الباب الذى بين يديه واخرج من الباب الذى خلفه ، فدخل ذلك البعض ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق . فمر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فوقف بالبيت فلم يحترق فنظر إلى سليمان وقد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه فأخرجوه فوجدوا منسأته — وهى العصا بلغة الحبشة — قد أكلتها الأرضة فلم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة . وإلى هذا يشير القرآن « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » . ذلك أن الجن كانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبون فى ادعائهم علم الغيب فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان ولم يلبثوا فى العناء والعذاب سنة يعملون له .

وكان عمر سليمان عند موته ثلاثاً وخمسين سنة ومدة ملكه منها أربعون سنة .

والآن فلنعد لنذكر شيئاً عن كتب السحر التى تنسب إلى سليمان الحكيم .

كان هناك فى القرن الأول للميلاد فى عهد الإمبراطور ڤسباسيان Vespasian كتاب متداول فى التعازيم والرقى الخاصة باستحضار الجن والشياطين وكان يعرف هذا الكتاب باسم « سليمان » . وذكر المؤرخ فلافيوس جوزيفوس Flavius Jozephus وكان معاصراً لذلك العهد أن هذا الكتاب كان فى حوزة يهودى يدعى العازار . وقد استطاع هذا اليهودى فى حضرة الإمبراطور ڤسباسيان أن يبرئ أشخاصاً مستهم الجن وذلك بأن وضع فى أنوفهم حلقات عليها رسوم خاصة وضعها سليمان لهذا الغرض ثم تلى فى الوقت ذاته بعض الصيغ التى ذكرها سليمان فى هذا الكتاب .

وقد أضيف إلى هذا الكتاب بمضى الزمن الكثير من الصيغ والتعاويذ السحرية ولعل هذا الكتاب هو النواة التى خرج منها كتاب « مفاتيح سليمان » وهو كتاب السحر الذى ذاع صيته فى القرون الوسطى وكان يعرف باسم Clavicule de Salomon .

وأخذ الكتاب فى مختلف العصور يتحدثون عن كتب السحر التى تنسب إلى سليمان ففى القرن الحادى عشر تحدث الكاتب اليونانى ميخائيل سللوس Michael Psellus عن

رسالة فى الجن وخواص الأحجار وذكر أن مؤلفها هو سليمان الحكيم . وتحدث مؤرخ بيزنطى آخر من أهل القرن الثالث عشر فى تاريخه عن الإمبراطور مانويل كومنينوس Manuel Comnenus عن كتاب فى السحر لا شك أنه هو كتاب « مفاتيح سليمان » السالف الذكر . وذكر أن هذا الكتاب كان فى حوزة هارون إسحق مترجم الإمبراطور وقال إن الذى يقرأ هذا الكتاب يستطيع أن يستحضر كتائب جمة من الجن والشياطين .

ويظهر أن هذا الكتاب قد انتقل فى القرن الثالث عشر من العالم البيزنطى إلى العالم اللاتينى وتذهب الروايات أن البابا هنوريوس الثالث الذى خلف البابا إينوسنت الثالث على الكرسى البابوى عام ١٢١٦ قد أعد نسخة جديدة من هذا الكتاب وقد اتهم لذلك بالشعوذة والسحر كما اتهم بذلك أيضاً البابوات ليو الثالث وجون الثانى والعشرين وسلفستر الثانى .

وكان الراهب المشهور روجر باكون الذى توفى عام ١٢٩٤ على دراية بكتب السحر التى تنسب إلى سليمان الحكيم ولكنه كان يرى عدم صحة نسبها إلى سليمان لما عرف عن هذا النبى من الفضل والحكمة . وفى حوالى عام ١٣٥٠ أمر البابا إينوسنت السادس بحرق كتاب كبير فى السحر يسمى « كتاب

سليمان » ويذكرون أن هذا الكتاب كان مايئاً بالقواعد والتعازيم الخاصة باستحضار الجن .

ويستخلص من هذه الإشارات المختلفة التى أوردها المؤرخون المسيحيون فى مختلف العصور أن كتاب السحر الذى ينسب إلى سليمان كان منتشراً فى مكتبات أوربا ولعل هذا الكتاب كان خليطاً من طقوس وشعائر سحرية من أصل يهودى بعضها ينسب إلى سليمان والبعض الآخر يرجع إلى عهود أخرى غير عهد سليمان ومنها تعازيم وصيغ سحرية لاستحضار الجن قديمة العهد جداً كانت منقوشة باللغة المسمارية على ألواح نينوى .

وما إن قاربت العصور الوسطى على الانتهاء حتى كانت هناك عدة نسخ مخطوطة من هذا الكتاب موزعة فى جميع أنحاء أوربا . وقد اهتم علماء عصر النهضة بهذا الكتاب اهتماماً كبيراً وظهرت منه أول نسخة مطبوعة فى عام ١٦٢٩ ثم أعيد طبع هذا الكتاب بعد ذلك مراراً .

على أن هذه النسخ المطبوعة لم يكن لها أية قيمة من الناحية العملية التطبيقية لأن التقاليد جرت على أن الساحر الذى يحترم نفسه وفنه يجب أن يكون لديه نسخة مخطوطة من كتاب سليمان وأن مراعاة هذا الشرط خير ضمان لنجاح عملية استحضار الجن والشياطين .

وقد ذكر كاتب مقدمة هذا الكتاب أن سليمان قد عهد بهذا الكتاب وهو « مفاتيح سليمان » إلى ولده رحبعم وأنه دارت بين سليمان وولده هذا الحوار :

« تذكر يا ولدى رحبعم أنك أعز الأشياء عندى فى هذا العالم وأن خالق المخلوقات جميعاً قد جمع فى شخصى كل حكمة » .

فيجيبه رحبعم : « وما هو سبيلى حتى أكون فى ذلك مثل أبى » .

فيقول سليمان : « إن ملاك الرب قد أوحى إلى بذلك فى المنام فقد ذكرت الاسم المقدس « يهوَه » (الله) وسألته أن يهبنى وسائل الحكمة فأرانى إياها ملاك الرب فى المنام وقال لى أخفى سر الأسرار على أحسن ما يكون الإخفاء لأنه سيأتى اليوم الذى ستتلاشى فيه العلوم الكلية وتختفى تماماً وتصبح باطلا من الأباطيل واعلم أن يومك بات قريباً ؛ وعند ذلك استيقظت من النوم كرجل مخمور أرتعد من الخوف وأخذت أفكر فيما عسى أن أصنعه فى هذا الأمر » .

ثم أوصى الملك سليمان ولده رحبعم أن يدفن معه هذا الكتاب فى قبره . وقد تم كل شىء كما أمر سليمان وظل هذا الكتاب مخبوءاً زمناً طويلا إلى أن عثر عليه فى قبر سليمان

بعض فلاسفة بابل من صحابة سليمان . وقد وجدوا هذا الكتاب محفوظاً فى صندوق عاجى فأخذوه ولكن لم يستطع أحد منهم قراءته أو فهم ما جاء به وذلك لغموض ألفاظ هذا العلم الخفى .

ثم تذكر المقدمة بعد ذلك أن فيلسوفاً من هؤلاء الفلاسفة ويدعى تزجرك Tozgrec كان جالساً ذات يوم فى غرفته يتأمل هذا الكتاب ويفكر فيه إذا بملاك الرب يتجلى له ويقول مخاطباً إياه « انظر واقرأ هذا الكتاب الصغير فإن الألفاظ التى تبدو خافية عليك سوف يسهل عليك توضيحها » وعند ذلك ابتهج تزجرك غاية الابتهاج ونظر فى هذا الكتاب فاستطاع أن يقرأ ما فيه بعد أن أعيى الجميع قراءته وعند ذلك ابتهل إلى الله أن لا يقع هذا الكتاب فى حوزة جاهل ثم قال :

« إنى أستحلف كل من يقع فى يديه هذا الكتاب بأعضاء بدنه وبكل ما يرغب فيه ويرمى إلى عمله أن لا يترجم هذا الكتاب ولا أن يفسره ولا أن يظهره لأحد اللهم إلا لأعظم الناس علماً وحكمة » .

ونجد بعد هذه المقدمة اللطيفة فصولا خاصة بالأعمال التمهيدية المتصلة باستحضار الجن والشياطين . وتشير هذه الفصول إلى أن الشياطين تنقسم قسمين : خيرة وهى التى تخدم الإنسان وأخرى شريرة يجب الابتعاد عنها .

ومن الملاحظ أن الفقه الكاثوليكى لا يأخذ بهذه التفرقة على أساس أن الشياطين جميعاً من الأشرار الملعونين .

ثم يعدد الكتاب بعد ذلك الصفات اللازم توافرها فى الشخص الذى يقوم باستحضار الجن والشياطين وما يجب أن تكون عليه الملابس التى يرتديها والنعل الذى يحتذيه والقلم الذى يكتب به والمداد أو الدم الذى يستخدمه فى الكتابة . وهذه الأدوات كلها ضرورية لا غنى عنها لمن أراد أن يدخل إلى هذا العالم الخفى المحجب بالأسرار :

الفصل الرابع

السحر فى الإسلام

لا نعرف إلا القليل من أفعال السحر وأخبار السحرة فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام فى القرن السابع للميلاد. وقد كان المتداول على ألسنة العرب فى الجاهلية أن سليمان الحكيم قد خلف وراءه إرثاً هائلا من الرقى والتعاويذ والصيغ السحرية المستعملة فى شتى الأغراض وأن أتباع سليمان وصحابته تقاسموا هذا الإرث فيما بينهم واحتفظوا بهذه الأسرار السحرية فى صدورهم لا يفضون بها إلا لذراريهم وأقرب المقربين إليهم، وأن فى بلاد العرب نفراً من الذين وصلتهم هذه الأسرار السحرية يعيشون فى الواحات البعيدة عن الطرق المسلوكة وهؤلاء هم سحرة العرب. وكان الناس من وقت لآخر ينشدون هؤلاء السحرة لاستشارتهم فيما يعرض لهم من أمور الدنيا ويطلبون عونهم بفضل ما عندهم من رقى وتعاويذ وصيغ سحرية.

وكان هؤلاء السحرة يعرفون عادة فيما قبل الإسلام باسم الكهان وكانوا يدعون المعرفة بالغيب. وكان الرأى بين الناس

أن لهؤلاء الكهان أذهاناً حادة وطباعاً نارية ولذلك ألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه .

وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن الكهانة كانت أصنافاً منهـــا ما يتلقاه الكهنة من الجن إذ كانت الجن تصعد إلى السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه إلى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن فيزيد فيه فلما جاء الإسلام ونزل القرآن ، حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .

والنوع الثانى ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد .

والثالث ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله تعالى فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

والنوع الرابع ما يستند إلى التجربة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً وظهر بين العرب نفر اشتهروا بالكهانة منهم شق بن أنمار بن نزار وسطيح ابن مازن بن غسان وطريفة الكاهنة وزبراء الكاهنة ولهؤلاء وغيرهم قصص عجيبة طويلة تبين الخوارق والأعاجيب التى قاموا بها .

وكان هناك غير هؤلاء عدد من السحرة المسلحين بالألفاظ والتعابير السحرية والطلسمات والتمائم والتعاويذ يعيشون فى الكهوف والمغاور الكبيرة وكانوا يمارسون أعمالهم السحرية على أساس أنهم صفوة ممتازة يتفوقون على الناس أجمعين .

وكانت تقاليد العرب فى الجاهلية شبيهة بتقاليد الأمم السامية الأخرى كاليهود والأشوريين والبابليين وكانت وسائلهم السحرية متفقة وما أثر عن هذه الأمم السامية . وقد اجتمع حول الكعبة فى الجاهلية عدد من الأصنام بلغ عددها ١٦٠ صنما تمثل الآلهة المختلفة وأشهرها اللات والعزى وهبل . وكان العرب يلجأون إليها لاستخارتها فى أمور دنياهم . وكان لهذه الأصنام سدنة أو كهنة من قبيلة قريش يتولون استنطاقها بمختلف الرموز والتعابير والصيغ الغريبة يوجهونها إلى تلك الأصنام .

وجاء الإسلام ونزل القرآن وبه آيات تشير إلى السحر .

وقصة السحر فى الإسلام تسير جنباً إلى جنب مع تقدم الحضارة الإسلامية . فقد كان السحر فى صدر الإسلام لا يزال على الفطرة ليست له قواعد مرسومة مدروسة إنما كان يتناقله الخلف عن السلف دون أن يتصدى أحد لدراسة هذا الفن السحرى الذى كان له أثر واضح على الحياة العربية بوجه عام .

ثم كان عهد الخلفاء الأول فى الشام ومصر والأندلس وفيه أخذ المترجمون فى نقل كتب اليونان والرومان وغيرهم من الدول المغلوبة على أمرها وأخذ العلماء فى دراسة تعاليم أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ولخصوا التواريخ القديمة وسنوا القوانين ووضعوا قواعد الدين والأخلاق . واشتغل العلماء فى مساجد القيروان والقاهرة وقرطبة وبغداد بدراسة الطب والسحر والكيمياء كما درسوا أيضاً السحر اليهودى والكلدانى .

وكان موقف المسلمين تجاه السحر قائماً — كما هو الحال فى جميع أمور الدنيا والدين — على ما ورد فى القرآن . وقد كتب نفر من علماء المسلمين أحسن وأشهر الرسائل فى السحر والغيبيات بوجه عام وذلك فيما بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر نذكر من هؤلاء الكندى وأبى معشر جعفر بن محمد البلخى وقستا بن لوقا البعلبكى وفخر الدين الرازى وثابت بن

قرة وجابر بن حيان وغيرهم .

والسحر فى اللغة العربية عبارة عن كل ما لطف مأخذه وخفى سببه ومنه الساحر ويطلق على الذى يقوم بهذه الأعمال . والسحر بالفتح هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه . والسحر هو الرئة وكل ما تعلق بالحلقوم وهذا أيضاً يرجع إلى معنى الخفاء ومنه قول عائشة رضى الله عنها : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونحرى . وقوله تعالى : « إنما أنت من المسحَّرين » يعنى من المخلوقين الذين يطعمون ويشربون .

والسحر فى عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله قال تعالى : « سحروا أعين الناس » حكاية عن موسى وسحرة فرعون أعنى أنهم موّهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى . وقال تعالى : « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » . وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد وهو السحر الحلال . قال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا » لأن صاحبه يوضح الشىء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ولطف عبارته ويقدر على تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، يسخط تارة فيقول أسوأ ما يمكن ويرضى تارة فيقول أحسن ما يعلم .

روى أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان ابن بدر وعمرو بن الأهتم، فقال الرسول لعمرو خبرني عن الزبرقان قال: مطاع فى ناديه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان هو والله يعلم أنى أفضل منه فقال عمرو : إنه ذمن المروءة ضيق العطن أحمق الأب لئيم الخال، وإنى يا رسول الله صدقت فيهما، أرضانى فقلت أحسن ما علمت وأسخطنى فقلت أسوأ ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من البيان لسحرا .

واختلف العلماء المسلمون فى معنى السحر فقال بعضهم هو خدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر حتى يخيل إلى المسحور الشىء أنه بخلاف ما هو به نظير الذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ويرى الشىء من بعيد فيثبته بخلاف ما هو على حقيقته، وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً يخيل إليه أن ما عاين من الأشجار والجبال سائر معه، قالوا فكذلك المسحور وتلك صفته يحسب بعد الذى وصل إليه من سحر الساحر أن الذى يراه أو يفعله بخلاف الذى هو به على حقيقته .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لما سحر كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء ولم يفعله . وعن عائشة أيضاً قالت سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى من

يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله .

والذى يقال إن يهود بنى زريق عقدوا عقد سحر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوها فى بئر ذروان حتى كان رسول الله ينكر بصره ودله الله على ما صنعوا فأرسل رسول الله إلى بئر ذروان التى فيها العقد فانتزعها فكان رسول الله يقول سحرتنى يهود بنى زريق . وفى ذلك نزل قول الله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد » .

والظاهر أن السحر عن طريق عقد العقد وقراءة التعاويذ عليها كان أمراً فاشياً فى زمن الرسول .

وأنكر البعض أن يكون الساحر يقدر بسحره على قلب شيء عن حقيقته وتسخير شيء من خلق الله إلا نظير الذى يقدر عليه سائر بنى آدم أو إنشاء شيء من الأجسام سوى المخاريق والخدع المتخيلة لأبصار الناظرين بخلاف حقائقها . وقالوا لو كان فى وسع السحرة إنشاء الأجسام وقلب لحقائق الأعيان عما هى به من الهيئات لم يكن بين الحق والباطل فصل ولجاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرته السحرة فقلبت أعيانها وفى ذلك وصف الله جل وعز سحرة فرعون بقوله :

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » .

وقد تساءلوا وكيف يفرق الساحر بين المرء وزوجه ، قيل إن معنى السحر تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به فى عينه وحقيقته ، فتفريق الساحر بين المرء وزوجه تخييله بسحره إلى كل واحد منهما شخص الآخر على خلاف ما هو به حقيقته من حسن وجمال حتى يقبحه عنده فينصرف بوجهه ويعرض عنه حتى يحدث الزوج لا مرأته فراقاً فيكون الساحر مفرقاً بينهما بإحداثه السبب الذى كان منه فرقة ما بينهما .

والسحر بالمعنى الضيق هو الفتنة أو هو الخيال المحض . ويطلق على ذلك فى كثير من الأحيان « التخييل » اعتماداً على الآية ٦٦ من سورة طه وهى : « قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى» . وربما كان هذا هو ما نسميه الآن «بالتنويم المغناطيسى».

وقد تحدث ابن خلدون فى مقدمته عن علوم السحر والطلسمات فقال هى علوم بكيفية استعدادات تقدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثانى هو الطلسمات .. وكانت هذه العلوم فى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفى أهل مصر من القبط وغيرهم .. ثم ظهر فى

المشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التآليف وأكثر الكلام فيها وفى صناعة السيمياء لأنها من توابعها لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية فهو من قبيل السحر . ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس فى التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها فى كتابه الذى سماه «غاية الحكيم» ولم يكتب أحد فى هذا العلم غيره .

ويذكر ابن خلدون أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهى مختلفة بالخواص ، وهى أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد فى الصنف الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى وما يتبع ذلك من التأثير فى الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية . فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهى ، وخاصية ربانية . ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد فى الآخر .

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذى تسميه الفلاسفة السحر ، والثانى بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول . والثالث تأثير فى القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخلية فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة صوراً مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فينظر الراؤون كأنها فى الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك، ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة .

ثم إن هذه الخاصية تكون فى الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذليل فهى لذلك وجهة إلى غير الله والوجهة إلى غير الله كفر ، ولهذا كان السحر كفراً أو الكفر من مواده وأسبابه ولذلك اختلف الفقهاء فى قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد فى الأكوان .

ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة فى الخارج والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء فى السحر هل هو حقيقة أو هو تخيل ، فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة فليس بينهم اختلاف فى نفس الأمر بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب .

ووجود السحر لامرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذى يحدثه . وقد نطق به القرآن فى قوله تعالى: « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله » .

وكان لاسحر فى بابل ومصر أزمان بعثة موسى عايه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتنازعون فيه وبقى من آثار ذلك فى البرابى بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك .

والفرق بين السحر والطلسمات هو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك

المؤثرة فى العناصر كما يقول المنجمون . ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية . والطبائع العلوية هى روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه فى غالب الأمر بالنجامة . والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير .

والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث فى النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله والساحر إنما يفعل ذلك من عنده وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين فى بعض الأحوال .

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً فى أحوال العالم ليس معدوداً من جنس السحر وإنما هو بالإمداد الإلهى لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم فى المدد الإلهى حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله . وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيها لأنه مقيد فيما يأتيه ويذره للأمر الإلهى فما لا يقع لهم فيه الإذن لايأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله .

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية فلذلك

لا يعارضها شيء من السحر مثل شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره .

وذكر المؤرخون أن راية كسرى كان فيها الوفق المئيني العددي منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم وهو فيما تزعم أهل الطلسمات والأوفاق مخصوص بالغلب في الحروب وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلا إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فانحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون .

ولم تفرق الشريعة بين السحر والطلسمات وجعلته كله باباً واحداً محظوراً لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يهمنا في شيء منهما فإن كان فيه ضرر

أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات لأن أثرهما واحد وكالنجامة التى فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله فيكون حينئذ ذلك العقل محظوراً على نسبته فى الضرر فلا أقل من أن تركها قربة إلى الله فإن من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالحظر والتحريم .

وقد تحدث بعض كتاب المسلمين عن أقسام السحر فقالوا إن السحر على أقسام الأول سحر الكلدانيين والسريانيين الذين كانوا فى قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلا لمقالتهم وراداً عليهم فى مذاهبهم .

والنوع الثانى سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ويستدلون على ذلك بأدلة . والدليل الأول أن الجذع الذى يستطيع الإنسان أن يمشى عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه المشى عليه إذا كان الجسر على هاوية تحته وما ذاك إلا لأن

تخيل السقوط متى قوى أوجبه . والثانى قولهم إن الأطباء قد اجتمعت على نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . والثالث أنه قد حكى عن ابن سينا فى كتابه الشفاء عن أرسطو فى طبائع الحيوان أن الدجاجة إذا تشبهت كثيراً بالديكة فى الصوت وفى الحراب مع الديكة نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك . ثم قال صاحب الشفاء وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية .

والدليل الرابع هو قولهم إن الأمم قد أجمعت على أن الدعاء مظنة الإجابة وأجمعوا على أن الدعاء اللسانى الخالى عن الطلب النفسانى قليل العمل عديم الأثر . ويذكرون خامساً أن المبادئ القريبة للأفعال الحيوانية ليست إلا التصورات النفسانية لأن القوة المحركة المغروزة فى العضلات صالحة للفعل وتركه أو ضده ولن يترجح أحد الطرفين على الآخر إلا لمرجح وما ذاك إلا تصور كون الفعل جميلا أو لذيذاً أو تصور كونه قبيحاً أو مؤلماً فتلك التصورات هى المبادئ لصيرورة القوى العضلية مبادئ للفعل لوجود الأفعال بعد أن كانت كذلك بالقوة . وإذا كانت هذه التصورات هى المبادئ لمبادئ هذه الأفعال .

فأى استبعاد فى كونها مبادئ للأفعال نفسها وإلغاء الواسطة عن درجة الاعتبار .

والدليل السادس الذى يسوقونه للتدليل على سحر أصحاب الأوهام هو أن التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات مبادئ قريبة لحدوث الكيفيات فى الأبدان فإن الغضبان تشتد سخونة مزاجه حتى إنه يفيده سخونة قوية ، إذ يحكى أن بعض الملوك قد عرض له فالج فأعيي الأطباء مزاولة علاجه فدخل عليه بعض الحذاق منهم على حين غفلة منه وشافهه بالشتم والقدح فى العرض فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة اضطرارية لما ناله من شدة ذلك الكلام فزالت تلك العلة المزمنة والمرضة المهلكة . فإذا جازكون التصورات مبادئ لحدوث الحوادث فى البدن. فأى استبعاد من كونها مبادئ لحدوث الحوادث خارج البدن .

أما الدليل السابع فهو أن الإصابة بالعين أمر قد اتفق عليه العقلاء وذلك أيضاً يحقق إمكان سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية .

وذكروا أن النفوس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدًّا فتستغنى فى هذه الأفعال عن الاستعانة بالآلات والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات . وسبب

ذلك أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات كانت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا فى هذا البدن، فإن أراد هذا الإنسان صيرورتها بحيث يتعدى تأثير من بدنها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير ووصفه عند الحس واشتغل الحس به فيتبعه الخيال عليه وأقبلت النفوس الناطقة عليه فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية ولذلك اجمعت الأمم على أنه لابد لمزاولة هذه الأعمال من الانقطاع عن المألوفات والمشتهيات وتقليل الغذاء والانقطاع عن مخالطة الخلق وكلما كانت هذه الأمور أتم كان ذلك التأثير أقوى .

ويتبين من هذا أن مزاولة هذه الأعمال لا تتأتى إلا مع التجرد عن الاحوال الجسمانية وترك مخالطة الخلق والإقبال بالكلية على عالم الصفاء والأرواح .

أما الرقى فإن كانت معلومة فالأمر فيها ظاهر لأن الغرض منها أن حس البصر كما شغلناه بالأمور المناسبة لذلك الغرض فكذلك حس السمع نشغله أيضاً بالأمور المناسبة لذلك الغرض . فإن الحواس متى تطابقت على التوجه إلى الغرض الواحد كان

توجه النفس إليه حينئذ أقوى وأما إن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة فإن الإنسان إذا اعتقد أن هذه الكلمات إنما تقرأ للاستعانة بشيء من الأمور الروحانية ولا يدرى كيفية تلك الاستعانة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ويحصل للنفس فى أثناء ذلك انقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل فيقوى التأثير النفسانى فيحصل الغرض المراد. وكذلك الحال عندما يستعين الساحر بالبخور والنيران .

والنوع الثالث من السحر هو الاستعانة بالأرواح الأرضية . وقد أنكر بعض المتأخرين من الفلاسفة وكذلك المعتزلة القول بالجن ولكن أكابر الفلاسفة لم ينكروا ذلك وإنما أطلقوا على الجن اسم الأرواح الأرضية وهذه مختلفة فى ذاتها منها خيرة ومنها شريرة فالخيرة هم مؤمنو الجن والشريرة هم كفار الجن وشياطينهم .

ثم قال هؤلاء الفلاسفة إن هذه الأرواح جواهر قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا حالة فى المتحيز وهى قادرة عالمة مدركة للجزئيات واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية إلا أن القوة الحاصلة للنفوس الناطقة بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة لها بسبب

اتصالها بتلك الأرواح السماوية . أما أن الاتصال أسهل فلأن المناسبة بين نفوسنا وبين هذه الأرواح الأرضية أسهل ولأن المشابهة والمشاكلة بينهما أتم وأشد من المشاكاة بين نفوسنا وبين الأرواح السماوية . أما أن القوة بسبب الاتصال بالأرواح السماوية أقوى فلأن الأرواح السماوية هى بالنسبة للأرواح الأرضية كالشمس بالنسبة إلى الشعلة والبحر بالنسبة إلى القطرة والسلطان بالنسبة إلى الرعية . وهذه الأشياء وإن لم يقم على وجودها برهان قاطع قاهر فلا أقل من الاحتمال والإمكان . ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن (البخور) والتجريد وهذا ما يسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن .

والنوع الرابع من السحر هو التخيلات والأخذ بالعيون وهذا النوع مبنى على مقدمات الأولى أن أغلاط البصر كثيرة فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشاطىء رأى السفينة واقفة والشاطىء متحركاً وذلك يدل على أن الساكن يرى متحركاً والمتحرك يرى ساكنا . وقطرة الماء النازلة ترى خطاً مستقيماً والذبالة التى تدار بسرعة ترى دائرة وهكذا . والجسم الصغير يرى فى الضباب كبيراً وكبخار الأرض الذى يريك قرص الشمس

عند طلوعها عظيماً فإذا فارقته وارتفعت عنه صغرت . وهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أن القوة الباصرة قد تبصر الشيء على خلاف ما هو عليه .

والمقدمة الثانية أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفاً تامًّا إذا أدركت المحسوس فى زمان له مقدار ما فأما إذا أدركت المحسوس فى زمان صغير جدًّا ثم أدركت بعده محسوساً آخر وهكذا فإنه يختلط البعض بالبعض ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض . وهم يقولون فى إثبات ذلك إن الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة ثم استدارت فإن الحس يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان .

والمقدمة الثالثة أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحس شيء آخر ولا يشعر الحس به البته فإن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان آخر ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه لأن قلبه مشغول بشيء آخر وكذا الناظر فى المرآة فإنه ربما قصد أن يرى قذاة فى عينه فيراها ولا يرى ما هو أكبر منها إن كان بوجهه أثر وبجبهته أو بسائر أعضائه التى تقابل المرآة .

وإنه يسهل علينا مع إدراك هذه المقدمات أن نتصور كيفية هذا النوع من السحر وذلك لأن الساحر الحاذق يظهر

عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى
إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً
آخر بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت الشيئين
أحدهما اشتغالهم بالأمر الأول والثانى سرعة الإتيان بهذا العمل
الثانى وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه
جداً ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما
يريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد
إخراجه لفطن الناظرون لكل ما يفعله، فهذا هو المراد من قولهم
إن المشعبذ يأخذ بالعيون لأنه فى الحقيقة يأخذ العيون إلى غير
الجهة التى يحتال فيها . وكلما كان أخذه للعيون والخواطر
وجذبه لها إلى غير مقصوده أقوى كان أحذق فى عمله، وكلما
كانت الأحوال التى تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل
أشد كان هذا العمل أحسن مثل أن يجلس المشعبذ فى موضع
مضيء جداً فإن الضوء الشديد يفيد البصر كلالاً واختلالا وكذا
الظلمة الشديدة وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالا
واختلالا والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها .

والنوع الخامس من السحر الأعمال العجيبة التى تظهر
من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة وعلى
ضروب الخيلاء أخرى مثل فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما

الآخر وكفارس على فرس وفى يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد ، ونحو ذلك من الأعمال الهندسية الدقيقة . على أن هذه الأعمال لا يمكن عدها فى الحقيقة من باب السحر ولكن لما كان إدراك سر صنعها عسيراً ولا يتيسر إلا لبعض الناس لذلك عدها أهل الظاهر من باب السحر .

ومن هذا الباب ما صنعه أرجعيانوس الموسيقار فى هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إياه ذلك أنه اتفق له أن كان مجتازاً بفلاة من الأرض فوجد فيها فرخاً من فراخ البراصل . والبرصلة طائر عطوف وكان يصفر صفيراً حزيناً بخلاف سائر البراصل وكانت البراصل تجيئه بلطائف الزيتون فتطرحها عنده فيأكل بعضها عند حاجته ويفضل بعضها عن حاجته فوقف هذا الموسيقار هناك وتأمل حال هذا الفرخ وعلم أن فى صفيره المخالف لصفير البراصل ضرباً من التوجع والاستعطاف حتى رقت له الطيور . وجاءته بما يأكله فتلطف فى عمل آلة تشبه الصفارة إذا استقبل الريح بها أدت ذلك الصفير ولم يزل يجرب ذلك حتى وثق بها وجاءته البراصل بالزيتون كما كانت تجىء إلى ذلك الفرخ لأنها تظن أن هناك فرخاً من جنسها . فلما صح له ما أراد أظهر النساك وعمد إلى هيكل أورشليم وسأل

عن الليلة التى دفن فيها أسطر خس الناسك القيم بعمارة ذلك الهيكل فأخبر أنه دفن فى أول ليلة من آب فاتخذ صورة من زجاج مجوف على هيئة البرصلة ونصبها فوق ذلك الهيكل وجعل فوق تلك الصورة قبة وأمرهم بفتحها فى أول آب وكان يظهر صوت البرصلة بسبب نفوذ الريح فى تلك الصورة وكانت البراصل تجىء بالزيتون حتى كانت تلك القبة تمتلىء كل يوم من ذلك الزيتون والناس اعتقدوا أنه من كرامات ذلك المدفون .

والنوع السادس من السحر الاستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل فى الطعام بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل أو أن يستخدم الأدخنة المسكرة أو المغيبة للوعى .

أما النوع السابع والأخير من السحر فهو تعليق القلب وهو أن يدعى الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرعب والخوف وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل ما يشاء . ولتعلق القلب أثر عظيم فى تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار.

وقد اتفق المعتزلة على إنكار هذه الأنواع إلا النوع المنسوب إلى التخييل والمنسوب إلى إطعام بعض الأدوية المبلدة

أما الأقسام الخمسة الأولى فقد أنكروها ولعلهم كفروا من قال بها .

أما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير فى الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً إلا أنهم قالوا إن الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء عندما يقرأ الساحر رقى مخصوصة وكلمات معينة وذلك استناداً على قوله تعالى : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » .

وقد اتفق المحققون على أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور لأن العلم لذاته شريف وأيضاً لعموم قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز . على أن اجتنابه أقرب إلى السلامة كتعلم الفلسفة التى لا يؤمن أن تجر إلى الغواية .

أما الساحر هل يكفر أم لا فلا نزاع بين الفقهاء فى أن من اعتقد أن الكواكب هى المدبرة لهذا العالم وهى الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور فإنه يكون كافراً على الإطلاق وهذا هو النوع الأول من السحر .

أما النوع الثانى وهو أن يعتقد أنه قد يبلغ روح الإنسان فى التصفية والقوة إلى حيث يقدر على إيجاد الأجسام وإعدامها وتغيير البنية والشكل فالأظهر إجماع الأمة أيضاً على تكفيره

وأما أن يعتقد الساحر أنه قد يبلغ فى التصفية وقراءة الرقى وتدخين بعض الأدوية إلى حيث يخلق الله تعالى عقيب أفعاله على سبيل العادة الأجسام والحياة والعقل وتغيير البنية والشكل فالمعتزلة اتفقوا على تكفير من يجوز ذلك . أما سائر أنواع السحر فلا شك أنها ليست بكفر .

وحكم من كفر بالسحر حكم المرتد وإذا سحر إنساناً فمات فإن قال إنى سحرته وسحرى يقتل غالباً وجب عليه القود . وإن قال سحرته وسحرى قد يقتل وقد لا يقتل فهو شبه عمد وإن قال سحرت غيره فوافق اسمه فهو خطأ تجب الدية مخففة فى ماله وهذا هو مذهب الشافعى .

وعن أبى حنيفة أنه قال يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب ولا يقبل قوله إنى أترك السحر وأتوب منه . فإذا أقر أنه ساحر فقد حل دمه وإن شهد شاهدان على أنه ساحر أو وصفوه بصفة يعلم أنه ساحر قتل ولا يستتاب وإن أقر بأنه كان يسحر ولكنه ترك السحر منذ زمان قبل منه ولم يقتل .

أما سائر أنواع السحر وكذلك من يتمشى بالتضريب والنميمة ويحتال فى إيقاع الفرقة بعد الوصلة ويوهم أن ذلك بكتابة يكتبها من الاسم الأعظم فكل ذلك ليس بكفر وكذلك القول فى دفن الأشياء القذرة فى دور الناس وإيهام أن الجن

يفعلون ذلك وكذلك من يدس الأطعمة المبلدة فإن شيئاً من ذلك لا يبلغ حد الكفر ولا يوجب القتل .

هذا هو رأى المسلمين فى السحر وأنواعه المختلفة والملاحظ أن علماء الإفرنج الذين كتبوا فى السحر لم يصلوا إلى هذه الدقة فى ذكر أنواع السحر إنما اكتفوا بذكر الأنواع التى تقوم على الرقى والتعاويذ أو التى تعتمد على براعة الساحر وحيلته .

الفصل الخامس

الرقى والتعاويذ

كان الاعتقاد فى العصور الوسطى أن السحرة يجتمعون من وقت لآخر فى جهات مختلفة من القارة الأوربية فأحياناً يجتمعون فى أطراف السهول والوديان الفسيحة وأحياناً فى داخل الأحراش الموحشة وتارة أخرى فوق قمم الجبال العالية وخاصة فوق جبال هرتز فى شمال ألمانيا . وهم يستحضرون الجن والشياطين لمشاركتهم أعمالهم وألاعيبهم فى هذه الاجتماعات الغريبة .

وجرت العادة أن يتخذ السحرة أهبتهم لحضور هذه الاجتماعات وهم يستعدون لها استعداداً ضخماً حتى يضمن كل واحد منهم التفوق على الآخرين فيما يقوم به من خوارق وأعاجيب. ونجد فى كتب السحر التى ترجع إلى العصور الوسطى رسوماً كثيرة تمثل السحرة وهم يستعيدون لهذه الاجتماعات فإذا ما حان حينها ذهبوا إليها بعضهم يمتطى عصىّ المكانس وأغلب هؤلاء من الساحرات والبعض الآخر يفكر فى اتخاذ صورة حيوانية أو شيطانية أو غير ذلك من الصور والأشكال الغريبة .

وكان الاجتماع يتم عادة فى جنح الظلام ولم تكد له رسوم وشعائر خاصة به بل كان كل ساحر أو ساحرة له مطلق الحرية فى التصرف حسبما تمليه عليه نزعاته وأهواؤه . وكان الشيطان نفسه يرأس هذه الاجتماعات متخذاً صورة غراب أو قطة سوداء أو كلب أو قرد . وهو يجلس على عرشه يتقبل فروض الولاء والطاعة من السحرة الذين يحضرون هذه الاجتماعات. ويذكرون أن الشيطان كان يقيم وليمة للحاضرين وكان كل ساحر يجلس إلى المائدة وإلى جانبه شيطان من الشياطين ولم تكن اللحوم التى تقدم للحاضرين سوى الجيف وأجساد الذين شنقوا وقلوب الأطفال الذين لم يعمدوا وغير ذلك من لحوم الحيوانات القذره التى لم يتعود الإنسان على أكلها . وبعد الانتهاء من تناول الطعام يأخذ المجتمعون فى الرقص والقيام بكل عمل عجيب غريب مما يحير العقول والألباب .

ولم يكن هم السحرة وعملهم مقصوراً على الذهاب إلى مجامع السحرة واستحضار الجن والشياطين وأرواح الموتى بل إن بعض السحرة كان يأبى القيام بمثل هذه الأعمال الخبيثة المحرمة وينصرف إلى أعمال أخرى لا تقل خطورة عن أعمال السحرة فى مجامعهم وهى الرقى والتعاويذ . ويمكن أن نقول إن هذه الرقى والتعاويذ كانت المبرر الأساسى لوجود هؤلاء السحرة

فى نظر الكثيرين من الناس .

ويمكن أن نقسم هذه الرقى والتعاويذ إلى قسمين : ضارة ونافعة وهذه التفرقة تمكننا أن ندرك بوضوح ما يمكن أن نسميه بالحياة المزدوجة للسحرة . فقد ننظر إلى الساحر نظرة ملؤها الخوف والرهبة بسبب المضار والمصاعب التى يستطيع إلحاقها بالأشخاص والأسر الوادعة المطمئنة بواسطة تعاويذه وأعماله الخبيثة كما ننظر إليه أحياناً أخرى نظرة توسل واستعطاف ليخلصنا من المصاعب والشرور التى حاقت بنا أو ليكون وسيلتنا إلى الغايات المحببة التى نبغى الوصول إليها .

والساحر اللبق يمكنه فى الحالتين أن يستغل ضعف الإنسان وقلة حيلته فيبتز منه الأموال نظير القيام بتعاويذه وأعماله السحرية. ويدعي السحرة أيضاً أنهم يستطيعون القضاء على الطواعين والأمراض التى تحل بجماعة من الجماعات أو بلد من البلاد نظير أجر معلوم . ويعمل الساحر فى بعض الأحيان على تخليص الشخص من سحر حل به نتيجة عمل ساحر آخر وفى تلك الحالة ينشب نضال عنيف بين هذين الساحرين ويقع غرم ذلك كله على الشخص التعس الذى حل به سحر الساحرين .

وكان الاعتقاد فى العصور الوسطى أن الساحر يستطيع إيقاف السفينة وهى تشق عباب المـــاء أو أن يحول دون

دوران طاحونة الهواء على الرغم من هبوب الرياح . وكانت السحرة تستطيع أيضاً تجفيف اللبن فى ضروع البقر وإيقاف النبت عن النمو وإحالة الخبز الأبيض إلى خبز أسود وتجميد الخمر فى قنانيها وإثارة الفتن والأحقاد بين الأهل والأصدقاء وخلق الطواعين وإثارة العواصف والأنواء .

وكانت السحرة تقوم بهذه الأعمال وأمثالها إذا طاب منها ذلك وهى فى الوقت ذاته تستطيع إبراء المريض وإخماد النيران وإيقاف النزيف وغير ذلك من الأعمال التى أكسبت السحرة شهرة فائقة .

وكانت هذه الرقى والتعاويذ تتكيف فى العادة بالبيئة التى تظهر فيها ففى الدول التى تطل على البحار مثل دول شمال أوربا وخاصة بلاد إسكندناوة كانت الرقى والتعاويذ تتصل عادة إما بإثارة الزوابع والعواصف فى عرض البحار وإما لتهدئة الأمواج أو لإيقاف السفينة وهى تشق عباب الماء ونحو ذلك من الأعمال التى تتصل بالبحر وبالسفر فى البحار . وتتصل الرقى والتعاويذ فى البلاد الزراعية بأعمال أخرى مثل تجفيف اللبن فى ضروع البقر أو إيقاف النبت عن النمو ونحو ذلك .

وقد امتلأت كتب السحر فى العصور الوسطى بالوسوم التى تبين أعمال السحرة وبمختلف الرقى والتعاويذ . فنجد فى أحد

هذه الرسوم اثنين من الملاحين واقفين على سطح سفينتهما وأمامهما ساحر واقف على صخرة بارزة من الماء يساومهما على حبل فى يده به ثلاث عقد . وقد عقدت الرياح فى هذه العقد الثلاث . فالشخص الذى يكون فى حوزته هذا الحبل المعقود إذا ما حل العقدة الأولى حصل على رياح جنوبية غربية عليلة ، وإذا ما حل الثانية حصل على رياح شمالية شديدة ، أما إذا حل العقدة الثالثة فإن عاصفة هوجاء تهب من جميع النواحى .

ونجد فى صورة أخرى رسم ساحرتين تعملان على استنزال المطر وذلك بتعريض ديك فوق مرجل ملتهب .

وكان السحرة يحصلون على مثل هذه النتائج بوسائل أخرى عجيبة مثل رسم بعض الرسوم والأشكال الهندسية أو الكروكية أو حبس ضفدع أو عنكبوت فى صندوق أو قراءة بعض الصيغ السحرية . وكان كتاب « مفاتيح سليمان » يحتوى على مجموعة من الرسوم السحرية المختلفة الأشكال والأحجام والرموز وكان من بينها رسم سحرى عبارة عن دائرة بداخلها بعض المثلثات المتداخل بعضها فى بعض على نحو خاص وحولها الفقرة السابعة من المزمور الثامن عشر ونصها « فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال ارتعدت وارتجت لأنه غضب » . وكان هذا الرمز السحرى خاصاً بإثارة الزلازل .

وقد اشتهر فى العصور الوسطى المتقدمة عمل سحرى يعرف باسم « يد الجلالة » Hand of Glory وقد وصفت بعض كتب السحر هذه التعويذة الضارة بشيء من التفصيل وكيفية تحضيرها وكانت هذه التعويذة تستخدم لإضاءة وعى كل شخص يقع بصره عليها وتجعله عديم القدرة على التحرك بحيث يصبح فى عداد الأموات . ويذكرون فى تحضيرها الوصفة التالية :

« خذ اليد اليمنى أو اليد اليسرى لمجرم يتدلى من إحدى المشانق المقامة على الطريق العام . ثم لف هذه اليد فى قطعة من غطاء نعش مع الشد عليها جيداً أثناء اللف وضعها بعد ذلك فى قدر خزفى به خليط من سلفات النحاس ونترات البوتاسا والملح وعرق الذهب ومادة أخرى لا نعرف كنهها تسمى « زيمات » Zimat بعد طحنها معاً طحناً جيداً . واترك اليد فى هذا القدر مدة أربعة عشر يوماً ثم أخرجها من القدر وعرضها لأشعة الشمس طوال أيام الشعرى (بين ٣ يولية و ١٥ أغسطس) إلى أن تجف تماماً . وإذا لم تكن أشعة الشمس من القوة بحيث تكفى لتجفيفها فضعها فى فرن وقوده السرخس والفرفحين (نوعان من النبات) . ثم اصنع بعد ذلك شمعة من دهن مجرم مشنوق مخلوط بالشمع الخام والسمسم وروث الخيل . ثم استخدم يد الجلالة كشمعدان تثبت فيه

الشمعة عندما تقاد ومن ثم فإن كل من يتعرض لهذه الوسيلة السحرية المؤذية يفقد وعيه ويصبح عديم الحركة . وقد عمد اللصوص فى تلك العصور إلى استخدام هذه الوسلية السحرية فى السرقة لذلك كان من الممكن إفساد تأثيرها عن طريق مسح عتبة البيت أو المواضع الأخرى التى قد يلج منها اللصوص إلى داخل البيت بدهان مركب من مرارة قطة سوداء ودهن دجاجه بيضاء ودم بومة ناعية ، ويجب أن يركب هذا الدهان إبان أيام الشعرى .

وكان هناك أيضاً ما يعرف باسم « الشمعة المسحورة » وهى تمكن الشخص من الكشف عن الكنوز المدفونة فى باطن الأرض . وهى عبارة عن شمعة كبيرة مصنوعة من شحم آدمى مثبتة فى قطعة من خشب البندق على هيئة حدوة الفرس . وعند ما تضاء هذه الشمعة فى مكان ما للبحث عما قد يكون به من كنوز مدفونة . فإنه يتناثر منها شرر لامع مع صوت قرقعة عالية كدليل على وجود الكنز فى ذلك المكان . وكلما اقتربت من مكان الكنز تزايد شرر الشمعة إلى أن تنطفئ عندما تصبح فوق الكنز .

وإذا ما أرادت ساحرة أن تلحق الضرر بفلاح ما فإنها تجفف اللبن فى ضروع أبقاره فلا يصبح أمام هذا الفلاح

التعس من حيلة سوى الذهاب إلى الساحرة يلتمس منها رفع هذا البلاء عنه بعد أن يدفع لها الأجر المتفق عليه . وكانوا يذكرون أنه كان فى استطاعة مثل هذا الفلاح أن يرفع عنه هذا الضرر إذا أخذ بعض لبن هذه البقرة التى جف ضرعها وغلاه فى القدر ثم يأخذ عصاً ويضرب اللبن به وهو فى القدر فإن ذلك يحدث فى جسم الساحرة ضربات لا تقوى على احتمالها الأمر الذى يضطرها إلى رفع تعويذتها الساحرة .

وكانت السحرة فى بعض الأحيان تحيل لبن الأبقار إلى لبن أزرق اللون ومن عجائب السحر أن هذا اللبن المسحور يكون دائماً أغزر من اللبن الطيب الأبيض اللون .

وإذا ما شح اللبن فى قرية من القرى فإن الساحرة الماهرة كان فى استطاعتها تفجير هذا اللبن من أشياء أخرى لا صلة بينها وبين اللبن . وكانت الطريقة الشائعة لذلك هى أن تأخذ الساحرة باطلة ثم تضرب بها أى عمود خشبى من الأعمدة التى ترتكز عليها شرفات المنازل فيتفجر اللبن من يد البلطة ويصير جمعه فى الأوعية والأوانى .

وكان بعض السحرة يقومون برقى وتعاويذ لا تفيد أحداً غيرهم فهى من قبيل الأعمال السحرية التى يتفوقون بها على غيرهم من بنى البشر نذكر من بينهم الساحر المشهور هوللر

Holler من أهل بلاد البلطيق فقد كان فى مقدور هذا الساحر أن يسير فوق سطح البحر على لوح من الخشب ، على أن الأغرب من ذلك كله الرقى والتعاويذ التى تجعل الساحر غير منظور وبذلك يندس فى المجتمعات ويدخل البيوت ويطلع على الأسرار دون أن يراه أحد .

وجاء فى كتب السحر الأسود وصفات كثيرة بها يصبح الشخص غير منظور أشهرها أن يحمل الشخص تحت زراعه الأيمن قلب وطواط ودجاجة سوداء أو ضفدع . وكانت هناك وسيلة أخرى أسهل من هذه وهى أن يلبس الشخص خاتماً مصنوعاً من الزئبق الثابت وعليه حجر صغير يؤخذ من عش طائر الزقزاق ويحفر حول هذا الحجر الكلمات : — « أما عيسى فجاز فى وسطهم ومضى (إنجيل لوقا ، الإصحاح ٤ ، الآية ٣٠). فإذا ما صنع الشخص هذا الخاتم ووضعه فى أصبعه ونظر إلى المرآة ولم يشاهد نفسه فذلك دليل على أنه قد نجح فى صنعه . ولقد ذكرنا فيما سبق أن الساحر يعمل فى بعض الأحيان على إبطال تأثير التعاويذ والرقى التى يقوم بها ساحر آخر ومن ثم تنشب بين الساحرين حرب لاهوادة فيها تكون الغلبة فيها للساحر الذى يتفوق بفنه وعلو كعبه فى السحر على غريمه ، بل يستطيع الساحر القوى أن يقضى قضاء تامًّا على الساحر الأقل

منه علماً وفناً ويقيده هو نفسه بتعاويذه الخاصة فلا يستطيع الفكاك منها . وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كانت هناك جزيرة فى بلاد القوط الشرقيين بها إبراشيتان وكان بهذه الجزيرة مغارة تمتد مسافات طويلة فى جوف هذه الجزيرة . وكان بهذه المغارة ساحر يدعى « جلبرت» وقد نفاه إلى هذه المغارة منذ الأزمنة القديمة أستاذه « كاتيوم » لأنه تجاسر عليه وسبه واحتقر صناعته فنفاه إلى هذا المكان بفنه السحرى . وكان هذا الساحر المنفى لا يستطيع تحريك أى عضو من أعضاء جسمه إذ كان مشدوداً إلى عارضتين من الخشب عليهما كتابات قوطية وأوربية قديمة .

وتذهب الأسطورة إلى أن هذا الساحر سوف يظل فى محبسه هذا إلى أن يتمكن ساحر آخر من تخليصه من ربقة تعويذة أستاذه الذى نفاه إلى هذه المغارة . وكانت هذه المغارة فى القرن السادس عشر موضع كثير من الخرافات المفزعة ولم يجسر أحد من أهل ذلك العصر أن يدخل هذه المغارة المخيفة .

ولعل أشهر التعاويذ والرقى التى كانت منتشرة فى العصور الوسطى وكان لها شأن هام هى تعاويذ الحب وتعاويذ الموت ، وكان لهذين النوعين من التعاويذ سحرهما الخاص فى نفوس أهل العصور الوسطى وذلك لاتصالهما بظاهرتين أساسيتين لا يخلو

أن يتعرض لهما الإنسان فى كل لحظة من لحظات حياته وهما الحب والموت . وكان الرأى أن الساحر الذى ينجح فى تحضير هذين النوعين من التعاويذ يكون قد بلغ الذروة فى فنه السحرى .

وتعرف تعويذة الحب باسم « رحيق الحب » وقد وردت هذه العبارة كثيراً فى مؤلفات العصور الوسطى وكذلك فى الملاحم الشعريه والروايات التمثيلية والأعاجيب ، إذ كان هذا الرحيق السحرى هو الملجأ الأخير الذى يلجأ إليه المحب عندما تعييه الحيل ويستعصى عليه محبوبه . ورحيق الحب عبارة عن سائل من الخمر يضاف إليه خليط من الأعشاب والعقاقير الذى تكسبه خاصية بعث الحب وإثارته فى نفس الشارب فإذا ما شرب الرجل أو المرأة هذا الرحيق تعلق قلبه بشخص بعينه ووقع فى أسر الحب .

وقد ذكرت بعض مؤلفات العصور الوسطى طرق تحضير هذا الرحيق ولعل أشهر هذه الطرق هى أن يأخذ المرء قلب حمامة وكبد عصفور دورى ورحم سنونو (عصفور الجنة) وكلية أرنب برى ويصنع من هذا كله مسحوقاً ناعماً ، ثم يضيف الشخص الذى يقوم بتركيب هذا الرحيق إلى هذا الخليط قدراً من دمه مساوياً لما أخذ من هذه الأصناف وذلك بعد تجفيفه وجعله على هيئة مسحوق . فإذا ما تناول الشخص المراد تعليق قلبه بالحب قدراً من هذا الرحيق ما بين درهمين

أو ثلاثة فسرعان ما تظهر نتيجة هذا العمل .

ويوجد فى متحف ليبسك صورة بديعة من رسم فنان فلمنكى غير معروف يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الخامس عشر . وتمثل هذه الصورة ساحرة شابة تحضر رحيق الحب وهى واقفة عارية وسط غرفة مهجورة . ويظهر فى هذه الصورة صندوق محمول على كرسى صغير وفى داخل هذا الصندوق قلب آدمى . وفى يد هذه الساحرة قنينة يتساقط منها السائل قطرة قطرة على القلب الموضوع داخل الصندوق . ولم يطل الانتظار بهذه الشابة طويلا لترى نتيجة سحرها لأن فتى أحلامها ما لبث أن أطل عليها من باب الغرفة وهو على استعداد لتلبية رغبات آسرة قلبه . وتبين لنا هذه الصورة كيف كانت الساحرة تقوم هى نفسها بتحضير هذا الرحيق العجيب . وكان الناس الذين يرغبون فى الحصول على هذا الرحيق يلجأون عادة إلى السحرة المحترفين ليحضروا لهم هذا الرحيق . ومن المتناقضات العجيبة فى مملكة السحر أنه كان يقوم بتحضير أقوى هذه الأنواع من رحيق الحب الساحرات القبيحات المنظر اللواتى بلغن من العمر أرذله .

ولم تكن تعاويذ الحب دائماً على شكل سائل . والظاهر أن الناس قد تخلوا عن رحيق الحب إلى حد ما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وذلك لصعوبة تحضيره ولصعوبة حمل الشخص

على شرب هذا الرحيق دون أن يدرك كنهه ولذلك لجئوا إلى وسائل أخرى أكثر سهولة وأفعل أثراً من ذلك النظر إلى الشخص المراد إيقاعه فى الحب ثم التفوه ببعض الصيغ والعبارات السحرية أو لمس يد هذا الشخص بعد أن تدهن راحة اليد بعصير نبات الفرفحين . وقد تبدو هذه الوصفة سهلة هينة ولكن من النادر العثور على نبات الفرفحين هذا .

وكانت هناك تعويذة أخرى تؤدى إلى نفس هذا الغرض المنشود دون أن يتطلب الأمر إعداد هذا الرحيق أو لمس الشخص المراد إيقاعه فى شراك الحب وهى عبارة عن رسم يتألف من دائرة كبرى وفى داخلها أنصاف دوائر وصليب ومربع موضوعة على نظام خاص ومنقوش حول الدائرة الكبرى هذه الفقرة المأخوذة من الكتاب المقدس :

« فقال آدم هذه الآية عظم من عظامى ولحم من لحمى ، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً (سفر التكوين الإصحاح الثانى ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤) . وبهذه التعويذة أيضاً أحرف عبرية موضوعة على شكل حلية .

والآن ننتقل إلى النوع الثانى من هذه التعاويذ وهى التى كانت تلقى الرعب والفزع فى قلوب الناس ونقصد بها تعاويذ

الموت . وكانت أشهر هذه التعاويذ عبارة عن تمثال شمعي يصنع على هيئة الشخص المراد إهلاكه ثم يأخذ الساحر فى طعن هذا التمثال الشمعى بمختلف أدوات الطعان فتنتقل هذه الطعنات والوخزات إلى الشخص الحقيقى بوسائل خفية فيموت دون أن تكون هناك علة ظاهرة لموته . وكانت السحرة فى بعض الأحيان تستخدم قلب الإنسان بدل التمثال الشمعى ويوخزون القلب بالإبر الطويلة فتحدث مثل هذه الوخزات فى قلب الشخص المراد إهلاكه . وقلما كانوا يستخدمون الجماجم لهذا الغرض ذاته .

وذكرت المصادر المختلفة أنه كان ببلاط فرنسا فى القرن السادس عشر منجم مشهور يدعى كوزمو روجيرى من أهل فرنسا وأن هذا المنجم قد برع فى عمل تعاويذ الموت وقد استعان به رجال البلاط الفرنسى فى قضاء مآربهم المختلفة بواسطة تماثيله الشمعية المهلكة. ويوجد فى المكتبة الأهلية بباريس مخطوط يحوى خطاباً موجهاً من كاترين دى مديسى إلى النائب العام الفرنسى وفيه تتهم كوزمو روجيرى بأنه صنع تمثالا شمعياً بقصد سيء ضد الملك شارل التاسع فى عام ١٥٧٤ وتشكو الملكة من ذلك قائلة : « سيدى النائب العام ، أمس أخبرنى بعض الناس نيابة عنك أن كوزمو قد صنع تمثالا شمعياً وأخذ يكيل الضربات إلى رأسه وأن القصد من هذا التمثال هو إيذاء الملك . وقد

استعلم كوزمو عما إذا كان الملك قد تقايأ أو لا يزال يدمى وما إذا كان يشعر بآلام فى الرأس » .

وقد تم بالفعل القبض على كوزمو فى اليوم التالى .

والغريب أن شارل التاسع قد توفى بعد ذلك الحادث بشهر واحد إذ انتابه هزال خفى . وقد ذكر البعض أن ساحراً بروتستانتياً قد سحره إذ كان يذيب يوماً بعد آخر التماثيل الشمعية التى تمثله وأن حياة الملك كانت تتدهور هى الأخرى يوماً بعد يوم بسبب هذا العمل السحرى .

وكان البلاط الإنجليزى أيضاً نهباً لهذا الفزع والخوف من التماثيل الشمعية المهلكة . فى صباح يوم من أيام عام ١٥٦٠ استدعى المجلس المخصوص الدكتور جون دى منجم البلاط الملكى على عجل فقد عثر على تمثال شمعى للملكة اليصابات وبه دبوس كبير مغروز فى الصدر . وقد انتقل المنجم ومعه أحد الوزراء إلى ريشموند حيث كانت الملكة تقضى عطلتها فى قصرها الذى يطل على النهر . وهناك أخذ المنجم يشرح للحاضرين ومن بينهم الملكة طبيعة تعاويذ الموت وكيفية إعدادها عاملا جهده على تسكين روع الملكة التى أخذ منها الخوف كل مأخذ لأن المأثور عن الملكة اليصابات أنها كانت تعتقد فى السحر والخرافات .

الفصل السادس

عقاب السحرة

كان الناس خلال العصور الوسطى وحتى نهاية القرن السابع عشر يتعقبون السحرة فى كل مكان ويعملون على قتلهم واستئصال شأفتهم بل كانوا إلى ما بعد هذا القرن السابع عشر يتعقبون هؤلاء السحرة فى ألمانيا وإسبانياوإيطاليا . إذ كان الناس ينسبون كل الكوارث التى تحل بالأفراد وبالبلاد إلى عمل هؤلاء السحرة فهم يعدونهم من الكفرة أعداء الإنسانية الذين ينتظرهم أشد العقاب فى العالم الآخر .

وتذهب الروايات إلى أن الشياطين أنفسهم كانوا يمسكون بالسحرة الذين انتهت فترة السماح الممنوحة لهم لمزاولة أعمالهم السحرية ويحملونهم إلى جهنم حيث المكان المعد لتعذيب كل واحد منهم .

على أن الناس فى تلك العصور لم يكونوا ليقتنعوا بهذا العقاب الذى ينتظر السحرة فى نار جهنم إنما كانوا يحبون أن ينتقموا بأنفسهم من هؤلاء السحرة بجزاء وفاقاً لما قاموا به

من أعمال قصدوا بها إلحاق الضرر بالناس دون رحمة أو شفقة لذلك كانوا يقبضون على هؤلاء السحرة ويقدمونهم إلى المحاكم التى تقدمهم بدورها إلى آلات التعذيب التى تنتهى غالباً بقتلهم شر قتلة .

وكان الناس من ناحية أخرى يواظبون ويثابرون على تعقب السحرة وقتلهم إطاعة لما جاء فى الكتاب المقدس : « لا تدع ساحرة تعيش» (سفر الخروج ، الإصحاح الثانى والعشرون ، الآية ١٨) .

ومن المؤكد أن العقوبات التى كانت تفرضها القوانين الأوربية المتقدمة على السحرة كانت أهون بكثير من العقوبات المنصوص عنها فى الشريعة الموسوية . إذ كثيراً ما كانت تفرض الغرامات المالية على من يتهم بالسحر . ونجد أيضاً أن المجامع الدينية مثل مجمع لوديسيا الذى عقد فى عام ٢٦٣ للميلاد وكذلك مجمع برخمستد الذى عقد عام ٦٩٧ كانت تقنع فى أحكامها بإخراج الساحرة أو الساحر من حظيرة الكنيسة المسيحية أو فرض غرامة مالية عليه . كذلك لم يغال القضاة المدنيون فى العصور الوسطى فى الحكم على هؤلاء السحرة دون سبب معقول . ففى عام ١٣٠٣ اتهم جيشار أحد الأساقفة بأنه ولد جان من الجن وأنه كان يستدعيه كلما رغب

فى ذلك فكان جزاؤه السجن ثم رد اعتباره فيما بعد .

ولم تشتد العقوبات التى كان يحكم بها على السحرة إلا ابتداء من القرن الخامس عشر إذ كانت من القسوة والشدة بحيث تقشعر منها الأبدان وخاصة فى فرنسا وإسبانيا . فقد كان ذلك القرن هو عهد اضطهاد وتعذيب السحرة بالمعنى الصحيح . ففى الوقت الذى كانت فيه تقنع السلطات البرتغالية بنفى السحرة إلى خارج البلاد كانت فرنسا وخاصة فى مقاطعة أرتوا تعذب السحرة بمنتهى الشدة والقسوة إذا كانوا يستجوبون ويعذبون وتوضع النيران تحت أقدامهم أو يجبرون على ابتلاع الزيت المغلى .

ولقد كانت هذه القسوة فى معاملة السحرة موضع تساؤل فى البرلمان الفرنسى فى عام ١٤٩١ حتى إن أعضاء هذا البرلمان قد أصدروا قراراً بإلغاء جميع المحاكمات التى كان ينظرها قضاة أراس متهمين هؤلاء القضاة بأنهم يسعون إلى الاستحواز على ممتلكات السحرة ، بل إنهم أجبروهم على دفع غرامات مالية كبيرة لضحاياهم على سبيل التعويض . وليس من شك أنه قد اتهم أناس كثيرون بالسحر والشعوذة زوراً وبهتاناً لأسباب كثيرة غير السحر حكم على هؤلاء الأبرياء بالسجن والتعذيب دون أن يقترفوا فى واقع الأمر جرماً يستحقون عليه هذا العذاب.

وقد توقفت هذه المحاكمات فترة من الزمن حتى لكأن الناس فى تلك الفترة كانوا على جانب كبير من التسامح وسعة الأفق . ثم جاء القرنان السادس عشر والسابع عشر وفيهما استؤنف اضطهاد السحرة وتعذيبهم من جديد .

ونذكر من بين القضاة الذين عاملوا هؤلاء السحرة بمنتهى القسوة والوحشية هنرى بوجيه قاضى قضاة كونتية برجاندى . فقد نشر هذا القاضى فى عام ١٦٠٣ كتاباً عن السحرة وما يجب على القاضى أن يتبعه من التعليمات عند محاكمته للسحرة . وهو يذكر فى هذا الكتاب بصراحة متناهية أعمال القسوة التى قام بها فى محاكماته للسحرة . وقد أخذ البرلمان الفرنسى لمدة طويلة بهذه التعليمات التى ذكرها هذا القاضى . وقد أشعرت أسرته بعد وفاته بالخجل لما قام به هذا القاضى من أعمال تتنافى والإنسانية . لذلك أعدمت جميع نسخ هذا الكتاب التى أمكنها الحصول عليها .

ولا يقل عنه شهرة فى هذا الميدان القاضى مارتن دل ريو أحد قضاة مجلس الدم الذى أنشأه دوق ألفا لمطاردة السحرة فى بلاد الفلاندرز .

وهناك آخرون من غير القضاة نشروا عدة كتب خاصة بأنواع العقوبات التى يجب إنزالها بالسحرة والمشعوذين ، كما

قام بعض رجال الدين من المسيحيين بنشر الرسائل الخاصة بهذا الموضوع ذاته .

وفى إنجلترا قام الملك هنرى الثامن والملكة اليصابات باضطهاد السحرة وتعذيبهم بمنتهى العنف والقسوة . ولا ننس فى هذا المقام الملك جيمس الأول الذى كتب بخط يده رسالة فى اضطهاد السحرة نشرت فى هانوفر عام ١٦٠٤ .

وهذه الرسالة عبارة عن نقاش فى ثلاثة أجزاء بين شخصيتين وهميتين هما فلماتوس وإبستيمون . ويعبر هذا الأخير عن آراء الملك جيمس . ويتناول هذا النقاش بالتفصيل كل ما يتصل بالسحرة والشياطين وعلوم الغيب بتعصب شديد . ويتحدث الملك جيمس فى هذه الرسالة على لسان إبستيمون عن السحرة بدون رحمة أو شفقة . فى بداية الفصل السادس من الجزء الثالث نقرأ المحاورة التالية :

فلماتوس — والآن لكى نصل بحديثنا إلى نهايته لأنى أرى أن الليل قد أخذ يرخى سدوله — فإنى أسأل عن العقاب الذى يستحق أن ننزله بالسحرة والعرافين الذين يوصمون بهذه الأعمال لأنى أشعر أنك تضع هؤلاء جميعاً فى درجة واحدة من درجات الاتهام .

إبستيمون — إن السحرة والعرافين يجب أن يذوقوا طعم

الموت فإن هذا هو الإجراء الحكيم تنفيذاً لحكم الله وللقانون المدنى والإمبراطورى ولقانون جميع الشعوب المسيحية بصفة خاصة أينما كانت هذه الشعوب .

فلماتوس — ولكن أرجو أن تخبرنى عن كيفية إعدامهم كما أوضحت ذلك ؟

إبستيمون — الموت بلهيب النيران هو ما يجب أن يحل بهم على أن ذلك لايهم ما دام سينفذ فيها حكم الإعدام وفقاً لما تنص عليه القوانين ويقضى به العرف والقواعد المرعية فى البلد التى يكونون فيها .

فلماتوس — هل ترى أنه يجب أن تكون هناك بعض الاستثناءات أو ندخل فى اعتبارنا مسألة الجنس ذكراً أم أنثى كان ذلك الساحر كبير السن أو صغيراً أو بسبب اختلاف مراكزهم الاجتماعية .

إبستيمون — أرى أنه يجب ألا يكون هناك أى استثناء لأن المفروض أن لا يكون هناك أى اعتبار لمثل هذه الأشياء أمام القاضى . فكل من يرتكب هذا الجرم يجب أن يعاقب وفقاً لسنة الله ولا يستثنى أحد من ذلك .

ولما زاد اضطهاد الناس للسحرة وتفننوا فى تعذيبهم والتنكيل بهم فى القرن السادس عشر قام طبيب مشهور يدعى چان وير

(ولد عام ١٥١٥ وتوفى عام ١٥٨٨) وأصدر كتاباً نشر فى عام ١٥٦٩ دلل فيه على أن كثيراً من الذين يتهمون بالسحر ليسوا سحرة إنما هم مرضى بمختلف الأمراض العصبية فلا يستأهلون هذا العقاب الذى يحل بهم . ولعل تناقص عدد السحرة الذين حوكموا وعذبوا فى عهده يرجع إلى هذا الكتاب الذى ترك أثراً عميقاً فى نفوس الناس فجعلهم يفكرون ويبحثون طويلا قبل اتهام شخص بالسحر وإنزال العقاب به ، ولعل أشهر محاكمات السحرة التى تمت فى فرنسا خلال القرن السابع عشر محاكمة جود فرى أحد القساوسة إذ اتهم بأنه سحر راهبة من الراهبات تدعى «ماجدلين ما ندل» فحكم عليه بالحرق حياً عام ١٦١١ وقد اعترف هذا الراهب أثناء المحاكمة أنه قد حضر اجتماعاً من اجتماعات السحرة التى أشرنا إليها سابقاً وكان ذلك جرماً لا يغتفر .

وتحوى سجلات أقاليم فرنسا كثيراً من تلك المحاكمات التى انتهت غالباً بالحكم على المتهم بالموت على أشنع صورة ، وغالباً ما كان الحرق حيا هو العقاب الذى ينتظر الساحر .

وقد أحرق قسيس إيطالى يدعى « بندتو بندا » وكان فى الثمانيين من عمره وقد اعترف هذا القسيس بأنه احتفظ فى بيته بشيطانة تدعى هرملين طوال أربعين سنة وكان يصطحبها

معه أينما ذهب دون أن يراها أحد لأنها كانت غير منظورة .
ولعل أصغر السحرة الذين حوكموا هى فتاة صغيرة تدعى
« كاترين ناجوى » فقد أحرقت وهى فى الحادية عشرة من
عمرها لاتهامها بالسحر . ونحن نعلم جميعاً أن جان دارك
محررة فرنسا قد أحرقت هى الأخرى حية لأنها اتهمت بالسحر .
وقد بلغت هذه المحاكمات بضع مئات .

وكان هؤلاء السحرة يعذبون بوحشية تقشعر لها الأبدان .
ولدينا عن هذه الأحداث وثائق مكتوبة ورسوم مطبوعة تبين
لنا الطباع والأعمال الوحشية التى كانت تسود عصر لا يزال
غير بعيد عنا . وقد اشتهرت هولندا بصفة خاصة بمحاكمات
السحرة وتعذيبهم بأبشع وسائل التعذيب ، ففى إمستردام كانت
المرأة المتهمة بالسحر تشد شدا محكماً إلى سلم خشبى ثم يدفع
اثنان من الجلادين الأقوياء هذا السلم إلى النيران التى تكون قد
أعدت لهذا الغرض فتحرق المسكينة حرقاً . وجرت العادة على
أن يحضر القاضى تنفيذ الحكم الذى أصدره ويكون التنفيذ
غالباً فى أحد الميادين حيث يجتمع الناس لمشاهدة هذا المنظر
وهم راضون كل الرضا لأنهم على زعمهم قد تخلصوا من ساحرة
كانت مصدر شقوتهم وإلحاق الضرر بهم .

وقد خلف لنا كاتب هولندى يدعى إبراهام بالنغ كتاباً

نشره فى إمستردام عام ١٧٢٥ ويحوى أنواع التعذيب التى كانت تحل بالسحرة والعرافين بهولندا . منها التعذيب بالسياط وكان يقوم به عادة صبية صغار لكى يشتد ساعدهم وتغلظ قلوبهم فيصبحوا فى يوم من الأيام جلادين للسحرة . وكان هذا النوع من التعذيب هيناً رفيقاً إذا قيس بالتعذيب بواسطة الكلابات المزودة بالأشواك الحديدية .

وكانت هيئة المحكمة تجلس أمام المتهم وتأخذ فى استجوابه بينما يقوم الجلادون بالضغط على أطرافه بهذه الكلابات المؤلمة .

وكانت هناك وسيلة التعذيب بواسطة الطوق الحديدى وهو عبارة عن طوق مبطن بالأشواك الحديدية البارزة يطبق على عنق الساحر فينا له منه أقسى أنواع التعذيب . كما كانوا يعذبون السحرة بوضع أرجلهم فوق لهيب الفحم المتقد .

وكثيراً ما كان المتهم تفيض روحه قبل أن تتم محاكمته لما يلقاه من هذا العذاب فينصرف القضاة إلى شئونهم ويتركون الجثة بين أيدى الجلادين لمتابعة إحراقها أو التنكيل بها وكأن المتهم لا يزال على قيد الحياة .

وجرت العادة فى كل من إسبانيا وإيطاليا على أن يرتدى السحرة عند تقديمهم إلى المحاكمة زياً خاصاً عبارة عن مئزر

عليه رسوم جن وشياطين يحركون نيران الجحيم ليزداد أوارها .

وتذكر المصادر الخاصة بأخبار السحرة والمشعوذين فى العصور الوسطى أن الغالبية الكبرى من السحرة كانت تقطن إقليم بامبرج من أعمال ألمانيا لذلك كان يوجد فى هذه المدينة بناء خاص تحاكم السحرة فيه ولم يكن فى أوربا كلها بناء آخر أقيم لمثل هذا الغرض . وكان يطلق على هذا البناء اسم « بيت السحرة » وقد شيد هذا البيت فى عام ١٦٢٧ . وكان فى زمانه يعتبر من أعاجيب فن البناء ولا تزال بعض المتاحف الأوربية تضم الأدوات التى كان يضمها هذا البيت . وكان منقوشاً على واجهة البيت فوق المدخل هذه الفقرة من أشعار فرجيل :

« تعلم الحكمة ما شاء لك أن تتعلم ولكن حذار أن تستهين بالآلهة » .

ونقشت على لوحتين صغيرتين فوق الجزء الأعلى من هذه الكتابة الترجمة اللاتينية والألمانية للآيات السابعة والثامنة والتاسعة من الإصحاح التاسع من سفر الملوك الأول وهى :

« وهذا البيت يكون عبرة كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت ، فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذى أخرج آباءهم من أرض

مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر » .

وكان هذا البيت يتألف من طابقين وفى مؤخرته كنيستين صغيرتين الواحدة منهما فوق الأخرى . وكان به غرفة للتعذيب وغرف أخرى صغيرة يحبس فيها السحرة قبل تقديمهم إلى المحاكمة وكان بكل غرفة منها طاقة صغيرة بالقرب من سقف الغرفة . وكان بالقرب من الكنيستين غرف القضاة كما كان بالطابق العلوى غرفة أخرى تعرف بغرفة الاعترا ف .

وقد تخلصت بلدية بامبرج من هذا البيت عندما أتيحت لها الفرصة وذلك لتمحوا أثراً من آثار البربرية التى كانت سائدة فى أوربا حتى عهد قريب .

الفصل السابع

السحر عند الشعوب البدائية

كاد السحر أن يتلاشى الآن بين الدول والشعوب المتحضرة وإن كانت هناك بعض الآثار المختلفة التى تدل على الأعمال والطقوس السحرية التى كانت تمارس على نطاق واسع منذ قرون قليلة مضت بين هذه الدول والشعوب .

فالإنسان الحديث وإن كان قد بلغ هذا الشأو الكبير من العلم والحضارة إلا أنه لا يزال يحن شوقاً إلى المجهول الخفى ويسعى إلى طلب العون منه كلما حزبه الأمر وضاقت أمامه سبل العيش . على أن بعض الناس تكون العاطفة الدينية قد تأصلت فى نفسه وقويت على غيرها من العواطف الأخرى الدفينة فيلجأ فى وقت الشدة إلى هذه القوة العليا التى نسميها الله ويعمل على استرضائها بالصلوات والابتهالات وغير ذلك من الطقوس والشعائر الدينية عله يجد عن طريقها الفرج بعد الشدة والراحة بعد العناء . وهناك آخرون وإن كانوا فى الوقت ذاته يعتقدون فى الله ويؤمنون به إلا أنهم مع ذلك ينشدون معونة القرى الخفية

الأخرى ويعملون على استرضائها بمختلف الطقوس والأعمال السحرية ، كما أنهم لشوقهم إلى معرفة المجهول نجدهم يستطلعون الغيب بمختلف الوسائل التى لا تزال شائعة بيننا حتى اليوم . وهم لا يعدمون أن يجدوا بين الناس من يدعى القدرة على الاتصال بهذه القوى الخفية والاستعانة بها على قضاء الحوائج والرغبات أو يدعى معرفة الغيب عن طريق الضرب فى الرمل أو قراءة الكف أو النظر فى النجوم أو غير ذلك من وسائل الكهانة والتنبؤ بالغيب .

والغريب فى الأمر أن هذه النزعة إلى التطلع إلى الغيب والاستعانة بالقوى والأرواح الخفية لا يقتصر ظهورها على الطبقات الدنيا من أهل هذه الدول والشعوب المتحضرة بل هى أيضاً فاشية بين أرفع الطبقات وأعلاها ممن نالت حظا لا يستهان به من الثقافة والعلم . وتطالعنا الصحف من وقت لآخر بأخبار وقصص من هذا النوع تدل على تأصل هذه النزعة السحرية فى النفوس على الرغم من هذا التقدم الهائل الذى أحرزه الإنسان فى ميدان العلوم المادية حتى كادت حضارة هذا العصر الحاضر تتسم بالمادية الصرف والبعد عن جميع الروحانيات التى كان لها الشأن الأول فى وقت من الأوقات.

وإذا كان هذا هو الحال الآن بين الدول والشعوب

المتحضرة فإن الحال أعجب من ذلك بكثير بين القبائل والجماعات البدائية التى لا تزال تعيش إلى الآن فى بقاع مختلفة من أنحاء العالم . وهذه القبائل تعيش حتى اليوم على الفطرة لأنها أو — على الأقل — الكثير منها لم يختلط قط بأى مظهر من مظاهر الحضارة لذلك هم يعيشون على النحو الذى كان يعيش عليه الإنسان منذ عشرات الآلاف من السنين .

وأول ما نلاحظه أنه لا تخلو قبيلة من القبائل الهمجية من طائفة السحرة وهى وحدها الطائفة التى تحتكر جميع المهن والحرف فى كل قبيلة من هذه القبائل . والاعتقاد بين هذه الجماعات البدائية أن للسحر قوى فوق القوى الإنسانية بها يستطيعون السيطرة والتحكم فى جميع القوى الطبيعية وأن هؤلاء السحرة على اتصال وثيق بالأرواح المختلفة الطيب منها والخبيث كما أن لهم الغلبة والسلطان على جميع الآلهة ، فالساحر فى مرتبة أعلى من مرتبة الإله الذى تعتقد فيه القبيلة من هذه القبائل البدائية .

ومما هو معلوم من صفحات التاريخ أن الأمم القديمة التى نالت حظًّا كبيراً من التقدم والحضارة كانت تنظر أيضاً إلى الساحر على أنه فى مرتبة أعلى من مرتبة الآلهة . ففى مصر القديمة كان السحرة يدعون أن لهم القدرة على إرغام أعظم الآلهة وأجلهم

شأناً على تنفيذ أوامرهم ونواهيهم ، وكان الساحر عند قدماء المصريين يهدد الآلهة بالدمار فى حالة التمرد والعصيان والخروج عن طاعته .

ولا يزال الثالوث الهندى المقدس إلى اليوم — ويتألف من براهما وفشنو وسيفا — يخضع للسحرة ويأتمر بأوامرهم . فهذه الآلهة الهندية تقوم بتلبية رغبات السحرة سواء ما كان منها فى عالم السماء أو فى العالم الأرضى لأنها لا تقوى على مقاومة تعاويذ ورقى السحرة الهنود . وهناك قول مأثور فى الهند وهو : « إن العالم بأسره يخضع للآلهة والآلهة تخضع للرقى والتعاويذ وهذه تخضع للبراهمة ومن ثم فالبراهمة آلهتنا » .

ولقد كان النزاع على أشده منذ القدم بين الدين والسحر وهذا يفسر لنا العداء المستحكم الذى كان ملحوظاً بين الكاهن والساحر فى الأمم القديمة فالكهنة كانوا لا يرضون عن أعمال السحرة وادعائهم القدرة على السيطرة على القوى الطبيعية وإخضاع الآلهة ذاتها إذ كانوا يعدون ذلك افتئاتاً على حقوق الآلهة واغتصاباً لامتيازات وصفات اختص بها الآلهة وحدهم دون غير . ثم كان الكهنة فى الوقت ذاته يعدون أنفسهم الواسطة الحقيقية بين البشر والآلهة . وليس من شك أن مكانة الكهنة الاجتماعية ومصالحهم المادية كانت مهددة على أيدى هؤلاء السحرة الذين كانوا يدعون بدورهم أنهم الوسيلة الأكيدة

والواسطة المحققة لمن أراد النجاح والتوفيق فى الحياة الدنيا والآخرة .

على أن هذا العداء بين الدين والسحر لم يتضح على ما يظهر إلا فى عهد متأخر نسبياً من تاريخ الدين . فقد كانت وظيفة الكاهن والساحر فى المرحلة الأولى من الدين متحدة أو متشابهة على الأغلب فلم يكن يفترق عمل الواحد منهما عن عمل الآخر . فالإنسان كان إذا أراد أن يصل إلى غرض من أغراض الدنيا أو الآخرة كان عليه أن يتودد إلى الآلهة والأرواح لاستدرار عطفها ولم يكن ذلك إلا عن طريق الابتهال وتقديم القرابين إليها وكان له فى الوقت ذاته أن يستعين ببعض الطقوس والاحتفالات وتلاوة بعض الصيغ والعبارات التى كان يأمل من ورائها أن تتحقق له آماله دون حاجة إلى معونة الآلهة والأرواح المختلفة ، أى أنه كان يقوم فى وقت واحد بشعائر دينية وأخرى سحرية دون أن يجد فى مسلكه هذا أى شيء من التناقض ما دام همه الوصول إلى ما يريد .

وعلى هذا الأساس نجد أن السحرة فى القبائل الهمجية هم فى الوقت ذاته كهنة هذه القبائل أى الرجال القائمون على شئون الدين فهم الذين يقربون القرابين للآلهة لطلب عونها فى الملمات والكوارث .

ومن الظواهر العجيبة بين هذه الأقوام البدائية أن كل

واحد من أفرادها يرى فى نفسه القدرة على القيام بالأعمال السحرية لتحقيق رغباته أو إيقاع الأذى بأعدائه . على أننا نجد أن بعض الناس فى كل قبيلة من هذه القبائل الهمجية قد اتخذوا تلك الأعمال السحرية مهنة لهم يكسبون بها معاشهم دون حاجة إلى الاشتراك فى الأعمال المختلفة العنيفة التى يقوم بها الأفراد الآخرون فى سبيل لقمة العيش . ففى كل جماعة من هذه الجماعات البدائية أشخاص يدعون القدرة بأعمالهم السحرية على التحكم فى الأجواء وفى الأمواج والأنواء وأنهم يستطيعون إبراء المرضى أو إلحاق الضرر بالغير عن طريق الرقى والتعاويذ .

والقاعدة أن يتخصص كل واحد فى ناحية من هذه الأعمال السحرية وإن وجد فى الوقت ذاته أشخاص شملت مهاراتهم جميع هذه الأعمال والنواحى . ويتناقل الخلف عن السلف هذه المعارف والأعمال السحرية كما هو الشأن فى المعارف المتصلة بالشعائر الدينية وطرق تقديم القرابين والقيام بالصلوات والابتهالات . والأغلب أن يجمع الشخص الواحد بين معرفته لهذه الطقوس والشعائر الدينيه وبين القدرة على التحكم فى الظواهر الطبيعية من رياح وأمطار وبرق ورعود وغير ذلك من الأعمال .

وهذا الخلط بين السحر والدين قد ظل باقياً بين شعوب

بلغت مستوى عال من الحضارة والمدنية كما كان الحال فى مصر القديمة وفى بلاد الهند بل إن هذا الخلط لم يتلاش تماماً بين أهل الطبقات الدنيا فى كثير من دول أوربا وآسيا فى الوقت الحاضر .

والسحر وإن كان قد اختلط بالدين فى كثير من العهود وعند كثير من الأمم والشعوب إلا أن هناك من الدلائل ما تدل على أن الإنسان فى وقت من الأوقات قد لجأ إلى السحر وحده لإشباع رغباته والحصول على حاجاته التى تسمو على قوى الإنسان العادية الأمر الذى دعا إلى القول بأن السحر أقدم من الدين مثال ذلك أننا نجد أن أهل أستراليا الأصليين وهم أكثر الأقوام ضرباً فى الهمجية يمارسون السحر على أوسع نطاق بينما لا يعرفون الدين على أنه وسيلة يسترضون بها القوى العليا غير المنظورة فكل واحد منهم يرى فى نفسه القدرة على تغيير مجرى القوى الطبيعية الكبرى عن طريق الأعمال السحرية ولكن لا يفكر أحد منهم فى أن يستطعف ويسترضى الآلهة بإقامة الصلوات وتقريب القرابين .

وليس من شك أن الإنسان قد أخذ يتحول من السحر إلى الدين تدريجاً عند ما رأى نفسه عاجزاً عن التأثير فى قوى الطبيعة الكبرى والسيطرة عليها سيطرة تامة . وكان من دلائل هذا الانتقال والتحول اعتقاد بعض الشعوب أن الآلهة نفسها

لها خبرة ومهارة فى أعمال السحر وأنها تحمى نفسها بالتمائم وتحصل على رغباتها بالرقى والتعاويذ . ومن المعلوم أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الآلهة هى الأخرى لا غنى لها عن السحر شأنها فى ذلك شأن باقى الناس فهى تلبس الأحجبة والتمائم وتستخدم الرقى والتعاويذ ليقهر الواحد منها الآخر . والمعروف أن الإلهة إيزيس كانت بارعة فى فنون السحر وقد اشتهرت بتعاويذها . وفى بابل اشتهر الإله « إيا » بأنه مخترع السحر وأن ولده مردخ قد ورث عنه فن السحر وكان يطلق عليه اسم ساحر الآلهة .

والحال عند القبائل البدائية أنه إذا فشل الساحر فى بلوغ ما يصبو إليه من سحره نسب ذلك إلى عمل ساحر آخر أكثر منه مقدرة ومهارة لذلك بدأوا يفكرون فى أن بعض الأعمال الكبرى كاستنزال المطر أو إثارة الرياح هى فوق قدرة أى ساحر من بنى البشر إنما هى من فعل كائنات أخرى غير منظورة أقوى من جميع البشر وهى الكائنات التى تطورت فيما بعد وأصبحت الآلهة عند هذه القبائل .

والسحر فى القبيلة من القبائل الهمجية إما أن يكون موجهاً لصالح فرد واحد وإما لصالح أفراد القبيلة على السواء . ففى الحالة الأولى يطلق عليه اسم السحر الخاص وفى الثانية اسم السحر العام .

وأهم الأغراض التى يستخدم فيها السحر العام هو ضمان الحصول على الطعام لأفراد القبيلة ، إذ ليس هناك من غريزة أقوى من غريزة حفظ الذات لذلك نجد الأشخاص المشتغلين بتوفير الطعام لأفراد القبيلة — كالصيادين والزارعين — لا يخرجون لأعمالهم إلا بعد طقوس سحرية كثيرة معقدة يقوم بها سحرة القبيلة لضمان عودة هؤلاء الأشخاص مزودين بالكثير من الزاد والطعام .

إن اهتمام هذه الطائفة من السحرة — بل الواجب الملقى على عاتقها — هو معرفة كل شىء يمكن أن يعين الفرد من أفراد القبيلة فى نضاله العنيف مع الطبيعة وكل شىء يمكن أن يخفف من آلامه ويطيل من حياته . ولقد استرعى انتباه هذه الطائفة خصائص العقاقير والمعادن وأسباب الأمطار والجفاف وأسباب الرعد والبرق وتغير الفصول وتعاقب أوجه القمر وحركة الشمس اليومية والسنوية وحركات النجوم والكواكب ولغز الحياة وسر الموت وغير ذلك من الظواهر التى استرعت أنظار الإنسان منذ أقدم العصور .

والواقع أنه لم توجد أية طائفة أخرى من الناس كان لها من الدوافع إلى تعقب الحقيقة أينما وجدت أقوى من الدوافع التى دفعت هؤلاء السحرة فى الجماعات البدائية ، إذ كان

من الضرورى لهؤلاء السحرة أن يظهروا على الأقل بمظهر العالم الخبير بهذه الأسرار وإلا فقدوا مراكزهم الممتازة بين أهل القبيلة والواقع أن ظهور هذه الطائفة من السحرة المتخصصين قد أفاد الإنسانية فائدة جليلة لأنها تعتبر النواة التى خرج منها الأطباء والجراحون والفلكيون والباحثون والمكتشفون فى كل فرع من أفرع العلوم الطبيعية .

ولعل من أهم الواجبات الملقاة على عاتق السحرة فى الأقوام والقبائل البدائية لصالح الجماعة هى التحكم فى الأحوال الجوية وخاصة ضمان هطول مطر يكفى حاجات القبيلة إذ بدونه تجف النباتات ويهلك الإنسان والحيوان .

ومن ثم كان صانع الأمطار فى الجماعات البدائية شخصية على جانب كبير من الأهمية. وتوجد غالباً فى كل جماعة من هذه الجماعات البدائية طائفة من السحرة عملها ضبط وتنظيم هطول الأمطار وفقاً لحاجات الجماعة . وكانت وسيلتهم إلى استنزال المطر تقوم عادة على مبدأ السحر التقليدى فإذا ما أرادوا استنزال المطر قاموا بأفعال تحاكى هطول الأمطار فيصطنعون نثر المياه كما هو الحال عند سقوط المطر . وإذا ما أرادوا إحداث الجفاف لجئوا إلى اصطناع ما من شأنه تسبيب الجفاف كإيقاد النيران تجفيفاً لرطوبة الهواء . فنجد مثلا أن السحرة فى

القبائل الأسترالية البدائية تحمى الحجارة بالنيران ثم تعرضها بعد ذلك للمطر المنهمر أو أنهم يلقون بالرماد الملتهب فى الهواء وهم يظنون أنه – بعملهم هذا – سوف يحتبس المطر لأنه لا يحب أن يحترق بهذه الحجارة المحمية وبهذا الرماد الملتهب . .

ولا تقتصر هذه الأعمال السحرية على القبائل والأقوام البدائية بل تقوم بها أيضاً جماعات نالت حظاً كبيراً من الثقافة والتمدين . فقد جرت العادة على أنه إذا احتبس المطر مدة طويلة فى بلاد اليونان اجتمع عدد من الصبية ويسيرون فى هيئة موكب وينتقلون حول العيون والآبار فى الجهات المجاورة ويسير على رأس هذا المركب فتاة مزينة بالزهور والرياحين فإذا ما وقف الموكب عند بئر أو عين ماء أخذ منها الصبية بعض الماء ونثروه على الفتاة التى تسير على رأس الموكب وهم بذلك يعتقدون أن المطر لا يلبث أن ينهمر .

ونجد أنه عندما ما يعوز أهل قرية دربات من قرى الروسيا سقوط المطر يخرج ثلاثة من رجال هذه القرية ويتسلقون أشجار الشربين ثم يأخذ أحدهم فى الضرب بالمطرقة على طبلة صغيرة أو برميل مقلداً بذلك صوت الرعد ، بينما يقدح الآخر جذوتين حتى يتطاير الشرر منها مقلداً بذلك وميض البرق . أما الثالث وهو الذى يطلق عليه اسم صانع المطر فيمسك

بيده حزمة من الأغصان الصغيرة يغمسها فى إناء به ماء ثم ينثر ما علق بها من ماء فى جميع الجهات .

والساحر فى الشعوب والقبائل البدائية يعتقد أنه يستطيع بسحره أن يتحكم فى الشمس ذاتها وأن يتحكم فى الرياح فيثيرها إذا أراد ويوقفها عن الهبوب عندما يحب وهو غالباً يقوم بهذه الأعمال السحرية الكبيرة لصالح الجماعة كلها عند ما تطلب منه ذلك .

وإذا كان الساحر فى الشعوب البدائية يعتقد أنه يستطيع التحكم فى هذه القوى الطبيعية الكبرى من رياح وأمطار وبروق ورعود فهو بطبيعة الحال له القدرة على التحكم فى الأفراد بمعنى أنه يستطيع إلحاق الضرر بالغير كما أنه يقدر على تخليص الفرد مما قد يحل به من آلام وشرور نتيجة لفعل الأرواح الخبيثة كما هو الاعتقاد عند هذه الجماعات البدائية . فهو يلجأ إلى الدمى والتصاوير التى تمثل الشخص الذى يريد إلحاق الأذى به ويعمل فيها سحره الضار فينتقل هذا السحر إلى الشخص ذاته الأمر الذى لا يزال يفعله مدعو السحر حتى اليوم فى كثير من الأمم والشعوب المتحضرة وهذا هو السحر الأسود الذى كان منتشراً كل الانتشار إبان العصور الوسطى على ما ذكرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب .

ولعل الطب هو من العلوم التى ترتبط برباط وثيق بفن السحر منذ أقدم العصور . فالإنسان يعتقد على الدوام فى الطب وإن كان إنسان ما قبل التاريخ والإنسان البدائى يطلق على الطب اسم السحر . فمن الأمور التى لفتت نظر الإنسان واهتمامه على الدوام ما يجرى داخل جسمه وكيف يتحرك هذا الجسم ويقوم بوظائفه المختلفة . والإنسان فى جميع مراحل تاريخه كان فى حاجة ملحة إلى نوع من الطب لأن الإنسان لم يخل من العلل والأمراض فى أى عصر من العصور . والمعروف أن العصر الجيولوجى الذى يطلق عليه العلماء اسم العصر الفحمى وهو الذى يرجع تاريخه على ما يقول بعض علماء الجيولوجيا إلى أكثر من ١٨٠ مليون سنة كانت تعيش فيه أنواع مختلفة من الميكروبات والبكتريا .

ويذكر العلماء أن حفريات أقدم أنواع القردة الشبيهة بالإنسان وهى التى يطلقون عليها اسم إنسان جاوه بها آثار خراج فى الفخذ ، بل إن بقايا حيوانات ما قبل التاريخ تدل على أن هذه الحيوانات كانت تصاب بأمراض النقرس والتهاب العظام وتسوس الأسنان وغير ذلك من الأمراض .

وعندما ظهر الإنسان الحديث منذ ما يقرب من أربعة عشر ألف سنة بدأت تظهر الوسائل البدائية فى العلاج . ومن

المعلوم جيداً أن إنسان العصر الحجرى وهو الذى كان موجوداً منذ ستة آلاف سنة مضت قام بصنع آلات حادة من حجر الصوان كالسكاكين والمحكات وقد استخدم هذه الآلات الحجرية فى القيام بعمليات التربنة أى فتح جماجم الرجال والنساء الذين كانوا يقاسون من الأمراض بسبب أعمال الأرواح الشريرة .

وهذا هو التفسير الوحيد المعقول الذى يمكن أن نفسر به وجود عدد من الجماجم البشرية وبها ثقوب مستديرة منتظمة مما يدل على أن هذه الثقوب قد تم عملها إبان حياة الشخص ثم اندملت أو بجزء منها على الأقل بمرور الزمن . وكان الغرض من عمل هذه الثقوب فى جمجمة المريض إتاحة الفرصة للأرواح الخبيثة التى حلت بالمريض لأن تخرج من هذه الثقوب لكى يبرأ المريض من علته .

وليس من شك أن هذا العلاج فى حد ذاته كان أخطر فى الواقع من المرض الذى كان يشكو منه المريض . على أن وجود مثل هذه الجماجم وبها الثقوب التى اندملت لدليل على على أن بعض هؤلاء المرضى قد ظل حيًّا بعد انتهاء هذه العملية الجراحية الخطيرة . وكانت هذه العملية كثيرة الحدوث إبان العصر الحجرى .

ولدينا من الشواهد ما يدل على أن الأمراض كانت منتشرة بين الإنسان فى عصور ما قبل التاريخ وفى عهد الإنسان الأول. فقد تم العثور فى إحدى المقابر القديمة بالقرب من هيدلبرج من أعمال ألمانيا على هيكل إنسانى به إصابات بالسل بالعمود الفقرى كما كانت أمراض النقرس وتسوس الأسنان وغير ذلك من أمراض العظام منتشرة فى تلك العهود القديمة من تاريخ الإنسان .

وليس من شك أن الإنسان الأول كان على مستوى عال من الذكاء فالآثار التى خلفها هذا الإنسان مثل الأدوات الجميلة التى قدها من حجر الصوان والرسوم البديعة التى خلفها على جدران الكهوف والمغاور وكذلك مصنوعاته التى صنعها من الخشب والعظام والعاج كلها تدل على أنه كان على قدر كبير من المهارة الفنية . وليس من المعقول أن نفترض أنه لم يطبق ذكاءه هذا بشكل ما على معالجة الأمراض وحوادث الحياة .

وليس لدينا بطبيعة الحال إلا شواهد قليلة جداً من الحفريات التى عثرنا عليها مما تتصل مباشرة بهذه الناحية ، ولكن لدينا ما يماثلها عند الإنسان البدائى الذى لا يزال موجوداً فى وقتنا الحديث فإذا ما طبقنا هذه الأمثلة التى نجدها عند الأقوام والشعوب البدائية بحذر وتدقيق فإنه يمكن أن نكون صورة ما عن الطب كما كان يمارسه الإنسان الأول وإنسان ما قبل التاريخ .

ويمكن أن نلخص أسلوبه أو طريقته الطبية فى معالجة الأمراض فى كلمة واحدة وهى السحر . ويمكن أن ندرس هذه الطريقة بدراسة ما يماثلها عند بعض الأقوام والقبائل البدائية الحالية كأهل أستراليا الأصليين وآهالى بعض أنحاء غينيا الجديدة وقبائل البوشمان فى جنوب إفريقية .

نجد أن الطب عند هذه الأقوام البدائية يتصل اتصالا وثيقاً بالسحر فالرجل الذى يقوم على علاج الأمراض عند هذه الأقوام يعرف باسم « الطبيب الساحر » . وهو شخصية تهابها أفراد القبيلة جميعاً ومع ذلك فهى تثق فيه وبقدرته العلاجية. فالأهالى فى تلك القبائل والجماعات البدائية تنسب عادة المرض إلى سحر خبيث عدائى قام به عدو وأن مهمة الطبيب الساحر هو إفساد هذا السحر لإبراء المريض . وعمل الطبيب الساحر هو فى الواقع نوع من الإبراء بالإيحاء وكثيراً ما ينجح هذا النوع من التطبيب كما هو حادث بين أهل الدول المتمدينة .

ولنذكر مثالا يفسر لنا ما نقوله :

يظن أهل أستراليا الأصليون أن جميع الأمراض بل وأحداث الحياة ذاتها التى لا يرجع أصلها إلى الخروج عن قواعد السلوك المرعية بين أفراد القبيلة وهى التى يطلق عليها اسم « التابو » هى من عمل السحر العدائى فالعدو أو الساحر

يضع دمية تمثل الشخص المراد إلحاق الضرر به ثم يعمل عليها سحره الخاص فيدب الألم والمرض فى جسد الشخص الذى تمثله الدمية . وهو إذا أحس بالمرض والألم يتمشى فى أوصاله استدعى الطبيب الساحر فيأتى ومعه بللوراته السحرية الشافية ، ثم يركز أنظاره على المريض معرضاً بللوراته الشافية لأنظار المريض ثم يدلكه ويمتص منه المرض الذى حل بجسده وهكذا يبرأ المريض من مرضه .

أما إذا اعتقد المريض أنه يعانى من سحر عدائى قتال لا ينفع معه التطبيب أو يرفض الطبيب ذاته معالجة المريض خشية أن يفشل فى ذلك فلا يكون أمام المريض والحالة هذه إلا أن يستسلم للموت .

وهذا هو نوع واحد من أنواع الطب البدائى كما يمارسه السحرة فى هذه الأقوام البدائية ولا بد أنه كان يمارس على وجه ما منذ مئات الآلاف من السنين .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

فهرس الكتاب

الكتاب أثمن هدية

خير هدية تقدمها لأهلك وأصحابك فى عيد الفطر السعيد نسخة أو مجموعة من هذه الكتب النفيسة :

	ص
تفسير القرآن الكريم (٣٠ جزءاً) ثمن الجزء	١٥
تفسير الطبرى (صدر منه ١٠ مجلدات) ثمن المجلد	١٠٠
جوامع السيرة لابن حزم الثمن	٨٠
عمدة التفسير (ظهر منه جزءان) ثمن الجزء	٥٠
المسند (ظهر منه ١٥ جزءاً) ثمن الجزء (ممتاز)	٨٠
« « (شعبى [illegible]	٣[illegible]
سيرة الرسول (٢٦ جزءاً)	[illegible]
قصص الأنبياء (٢٠ جزءاً)	[illegible]
القصص الدينية (٢٠ جزءاً)	[illegible]

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة